

وليم أوف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية في الشرق من سقوط  
القدس إلى الفتح الإسلامي (١٠٩٩-١١٨٧ م)  
(دراسة تاريخية نقدية)

د. علي أحمد محمد السيد\*

شغلت الحروب الصليبية أذهان الناس وحركت أفلام المؤرخين وأثارت خيال الشعراء والفنانين في أنحاء الغرب الأوروبي أجيالاً بعد أجيال، وكان من الطبيعي أن يهتم راهب مثل وليم أوف نيوبره William of Newburgh بتسجيل بعض أحداثها في معرض تناوله لتاريخ إنجلترا في مدونته التي تحمل عنوان *Historia Rerum Anglicarum* وهو عبارة عن دراسة تاريخية لإنجلترا منذ الفتح النورمانى لها عام ١٠٦٦ م/ ٤٥٨ هـ. حتى عام ١١٩٧ م/ ٥٩٤ هـ، وقد لقي هذا العمل المصير نفسه الذى حظيت به معظم الأعمال ذات الأهمية الخاصة المتعلقة بتاريخ إنجلترا في العصور الوسطى، إذ تم نشرها في مجموعة تاريخ إنجلترا منذ باكر العصور المعروفة باسم سلسلة اللفائف *Rolls series*<sup>(١)</sup>.

\* جامعة الإسكندرية - فرع دمهور - كلية الآداب - قسم التاريخ والآثار.

(1) William of Newburgh, *Historia Rerum Anglicarum*, ed. Howlett, R: *Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I*, Bd.1 [RS 82, 1], London, 1844.

هذا وقد اعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية للنص التى نشرها الباحث سكوت ماكلنتشى Scott Mclethie عام ١٩٩٩ م. تحت اسم تاريخ وليم أوف نيوبره، رسالة افتتاحية

"The History of William of Newburgh, The Prefatory Epistle" تعديلا منه لما كان جوزيف ستيفنسون Joseph Stevenson قد نشرها بالإنجليزية منذ حوالى قرن ونصف، بحيث شكلت الجزء الرابع القسم الثانى من مجموعة مؤرخى إنجلترا الكنسيين<sup>(١)</sup> The Church Historians of England.

ولد مؤرخنا وليم William فى بلدة بريدلينجتون Bridlington بمقاطعة يوركشير Yorkshire فى عام ١١٣٥م أو ١١٣٦م / ٥٢٩هـ أو ٥٣٠هـ وتلقى تعليمه فى دير مدينة نيوبره Newburgh الذى اتبع النظم الأوغسطينية<sup>(٢)</sup> فى الرهبنة ، ومن هنا اقترن اسم المؤرخ بالدير والمدينة الواقع فيها. وفى عام ١١٨٢م / ٥٧٨هـ عاد إلى يوركشير بعد أن هجر زوجته الثرية. وهناك شرع فى تدوين كتابه الشهير<sup>(٣)</sup> الذى يبدو بوضوح أنه دونه قبل فترة قصيرة من وفاته فى يوركشير ١١٩٨م.، والمؤرخ ينتمى إلى مدرسة المؤرخين الشمالية إذ سار على نهج كتابه المؤرخ بيده المبارك Bede the Venerable المتوفى عام ٧٥٣م.

(1) William of Newburgh, The Church Historians of England, Vol. IV, part II; translated by Joseph Stevenson (London: Seeley's, 1861). The electronic form of this presentation is © 1999 by Scott McLetchie.

وقد شمل التعديل تصنيف وتقسيم الفقرات الأصلية بإضافة الأرقام لها. كما تم إحلال وتبديل فى حروف الكلمات الإنجليزية القديمة.

(٢) وضع القديس بندكت أسس الرهبنة الغربية فى عام ٥٢٩م. وخلال عدة أجيال شرعت عدة قوانين لتنظيم العلاقات بين الرهبان فيما يعرف بحركة الحياة الديرية المنتظمة، وقد اتبع هؤلاء جميعا قاعدة للحياة يُعتقد أن واضعها هو القديس أوغسطين المتوفى عام ٤٣٠م.، ومن ثم جاءت التسمية المعروفة بقوانين أوستين الكنسية Austin Canons، نسبة إليه وهى التى غدت ركيزة الفكر المسيحى الغربى لما يزيد عن الألف عام. انظر كولتون، ج.ح : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة وتعليق: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ١٧٣-١٧٤؛ كرسنوف دوسن: تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة: سعيد عاشور، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٥٤، ٧٥-٢٥١، ٢٧٧-٢٥٢.

(3) Blakeley, L., Brian & collins Jacquelin, Documents in British History, (Early Times to 1714) 2 Vols., 2<sup>nd</sup> ed., London, 1993, Vol. I., p. 50.

ونظرا لكون وليم أوف نيوبره راهبا فقد كان معزولا عن الحياة العامة، ورغم أن كتابه يتسم بكثير من الغموض إلا أنه على درجة كبيرة من الأهمية والقيمة خاصة بالنسبة للفترة المبكرة من حكم الملك الإنجليزي هنرى الثانى Henry II ١١٥٤-١١٨٩م<sup>(١)</sup>.

إن تصنيف مدونة هذا المؤرخ يضعها بين مصادر تاريخ إنجلترا. إلا أنه بعد فحصها تبين أنها تضم مادة تاريخية أصيلة وثيقة بتاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة. ولما كانت إنجلترا لها يد طولى فى أحداث الحركة الصليبية فى الشرق، وكذلك بقية دول أوروبا الغربية التى لعبت دوراً قد يكون أكثر أهمية فى تلك الحروب، ولما كانت المدونة قد اشتملت على تأريخ لهذه وتلك، كان من الطبيعى أن تتضمن المدونة أيضاً تأريخاً لعلاقات تلك القارة الخارجية مع الشرق خلال فترة كتابة المؤرخ الممتدة منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر حتى أواخر القرن الثانى عشر الميلاديين وهى الفترة التى واكبت شطرحملات الصليبية وربما يزيد.

وعليه وقع اختيار الباحث لموضوع بحثه تحت عنوان "وليم أوف نيوبره مؤرخاً للحروب الصليبية فى الشرق من سقوط القدس إلى الفتح الإسلامى ١٠٩٩م/١١٨٧م، دراسة تاريخية نقدية".

ويحكم انتماء الباحث للمنطقة العربية فقد وجد من المناسب أن يستل من المدونة جانب محدد من الموضوعات ذات الصلة بالوطن. فكانت فكرة التركيز على موضوع الحركة الصليبية عند المؤرخ. ويلاحظ هنا التدرج الواضح فى مدى اهتمامه بهذا الأمر وتوسعه كلما تقدم فى الكتابة، حتى سيطر هذا الموضوع على المادة التاريخية الواردة فى كتابيه الأخيرين. ولهذا بالطبع ما يبرره؛ ذلك أن المؤرخ اهتم بشكل أوضح بتسجيل الأحداث التاريخية الصليبية التى عايشها وعاصرت حياته، وتتمثل أبرزها فى أحداث الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩-١١٩٢م / ٥٨٥-٥٨٨هـ، وصولاً إلى آخر تلك الأحداث فى المدونة المتعلقة بالحملة الصليبية لهنرى السادس Henry VI إمبراطور ألمانيا ١١٩٠-١١٩٧م / ٥٨٦-٥٩٤هـ فى عامه الأخير الذى توفى فيه. وعليه أقمّت دراستى على أساس تناول المادة التاريخية الخاصة بالحركة الصليبية فى الشرق، حتى حدث فتح صلاح الدين الأيوبي للقدس فى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ بصفتها وحدة موضوعية تاريخية واضحة المعالم، أما الأحداث التى وقعت فى العقد الذى يتلو ذلك فأجد أنها جديرة بأن تدرس على حدة فى دراسة أخرى على اعتبار أن صاحب

(1) Catholic Encycloepadia, ed. [www.google.com](http://www.google.com), [www.Newadvent.org](http://www.Newadvent.org), Art. William of Newburgh.

المدونة يعد واحداً من المؤرخين الرواد لهذه الحقبة. كما أن أسلوبه فى الكتابة عنها قد اختلف باتسامها بالمعاصرة والإفاضة والقدرة النقدية، ومن ثم يتمثل دور الباحث فى إلقاء الضوء على أهمية المدونة وتتبع المادة المغمورة المتعلقة بالحركة الصليبية طوال فترة قيام مملكة

## بيت المقدس الصليبية فى القدس فقط.

ذلك كان هو شأن الفترة الزمنية موضوع البحث. أما من ناحية الموضوع فلا شك أنه من الصعب دراسة المادة الصليبية فى المدونة دون مضاهاتها بمثيلاتها التى فى المصادر الصليبية المعاصرة. ولذا تخيرت أبرز الأعمال منها فكان كتاب "أعمال الفرنجة الحاجين لبيت المقدس" للمؤرخ الصليبي فولشر أوف شارتر Fulcher of Charters، معتمدا على الترجمة الإنجليزية للكتاب<sup>(١)</sup>، ثم كتاب "تاريخ الأعمال التى تمت وراء البحر" لمؤلفه وليم الصورى William of Tyre، معتمدا على الترجمة الإنجليزية له أيضا<sup>(٢)</sup>. أما —

(١) ولد فولشر بمدينة شارتر بفرنسا فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٠٥٨ - ١٠٥٩ م. واشترك فى الحملة الصليبية الأولى فى شهر أكتوبر سنة ١٠٩٦ م. وكان مرافقا للملك بلدوين أوف بوايون Baldwin de Bouillon، وأقام معه فى الرها حيث كان يحكمها نحو عامين. ثم انتقل معه إلى بيت المقدس وبقي ملازما له حتى وفاته فى عام ١١١٨ م. ثم مكث فولشر فى بيت المقدس حتى عام ١١٢٧ م. راجع :

Fulcher of Charters, A History of the Expedition to Jerusalem, trans. by Frances Rita Ryan, ed. with an introduction by Harlod's Fink, Konville, U.S.A., 1969, Bassim.

(2) William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, 2 Vols., trans. by Babcock and Krey, New York, 1943.

ولد وليم الصورى فى بيت المقدس سنة ١١٣٠ م. وهو ينتمى لأسرة فرنسية شاركت فى الحملة الصليبية الأولى. وقد عاش وليم الصورى فترة شبابه فى الشرق اللاتينى، وأتقن اللغة العربية واليونانية واللاتينية والفرنسية. نحل العلم من مدن باريس، وشارتر، وأورليان. وعاد بعد عشرين عاما إلى الأراضى المقدسة. عمل فى خدمة ملوك المملكة، كما أخذ يترقى فى المناصب الكنسية حتى صار مستشارا للمملكة الصليبية ورئيسا لأساقفة صورعام ١١٧٤ م. ولذا كلف بمهام رسمية وسفارات مهمة. وفى عام ١١٨٠ م. حدثت تغيرات سياسية أحاطت بأماله فى اعتلاء منصب بطريرك بيت المقدس. وفى أغلب الظن مات المؤرخ فى عام ١١٨٤ م. انظر:

Edbury, P.W., William of Tyre, A History of the Crusades and the Kingdom of Jerusalem (1130-1184) in Bulletin of the Faculty of Arts in Alexandria University, 1988, pp. 43-52.

راجع أيضا: عمر كمال توفيق: المؤرخ وليم الصورى، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، عدد ٢١، ١٩٧٠ م.، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٦٩ م.، ص ١٨ - ٢٠.

فيما يتعلق بالسنوات القليلة التى توقفت فيها كتابات المؤرخ بداية من عام ١١٨٣ م. حتى عام الأحداث الأخيرة فى موضوع البحث فقد لجأت إلى تغطيتها باستخدام الحولية التى تعد تذييلا للكتاب السابق، وهى لرجلين انتسبت إليهما "إرنول وبرنارد" Ernoul et Bernard وكيل

الخزانة المنشورة باللغة الفرنسية القديمة<sup>(١)</sup>، وكذلك لجأت في الفترة ذاتها إلى كتاب "حوليات روجر أوف هوفدن، تاريخ إنجلترا وبلاد أوروبية أخرى في الفترة من ٧٣٢م إلى ١٢٠١م.<sup>(٢)</sup> The History of England and of other countries of Europe from 732 A.D. to 1201 A.D.

على هذا النحو فإن ملامح المنهج المتبع تتضح من خلال تقديم وإبراز المادة التاريخية الخاصة بالحركة الصليبية عند وليم أوف نيوبره مرحلة بعد مرحلة. وحتى يمكننا تقييم كل منها فلا مناص من مضاهاتها ومقارنتها بالمادة الواردة عند أقوى الكتابات المعاصرة لكل مرحلة لتوفير الخلفية التاريخية الضرورية على ما يأتي؛ فالمعروف أن المؤرخ فولشر أوف شارتر سجل مدونته بحيث شملت أحداث الحملة الصليبية الأولى منذ الدعوة لها حتى عام ١١٢٧م/٥٢١هـ. وتدعمت تلك الكتابات بكتاب وليم الصوري في الفترة ذاتها. لذا كانت مدونتاها أساساً لتبيان أوضاع الشرق اللاتيني في تلك الحقبة. ثم يأتي ما سجله وليم الصوري منفرداً في غالب الأحيان بداية من هذا العام حتى ١١٨٣م/

(١) برنارد هو وكيل خزانة القديس بطرس في دير كوربي Corbie بفرنسا كما يخبرنا في آخر سطور الكتاب. ووضع الكتاب استناداً إلى مخطوط مفقود وضعه شخص يدعى إرنول بعنوان "حروب صلاح الدين" التي تحتل جزءاً كبيراً من الكتاب. ويتوقف الكتاب عند عام ١٢٣١م. انظر:

Ernoul, La Chronique d'Ernoul & de Bernard le Trésorier, ed. Mas-Latrie, Paris, 1871, p. 472.

(2) Roger of Hovden, Annals of Roger d'Hovden, The History of England and of other countries, illustrations by Henry Europe from 732 A.D. to 1201 A.D., trans. From the Latin with notes and T. Riley, 2 Vols., London, 1853.

وينتسب روجر إلى هوفدن وهي إحدى قرى يوركشير Yorkshire الآن. وقد عمل روجر أستاذاً للاهوت ودخل في خدمة الملك الإنجليزي هنري الثاني قسيساً للقصر، كما عمل أميناً لسر الملك. وقد جمع في كتابه بين ما نقله عن المؤرخين الآخرين، وما دونه هو بنفسه. ويلاحظ أنه أولى اهتماماً بالأحداث في الأراضي المقدسة، ويلاحظ تديقه فيما كتبه هو بنفسه منذ عام ١١٥٥م. انظر:

Ibid, Vol. 1, pp.I-XII.

٥٧٩هـ. أساساً لإبراز الجانب الآخر من الأحداث التي تستغرقها الفترة. وهكذا يكون الحال بالنسبة لمدونة إرنول وبرنارد، وكتاب المؤرخ الإنجليزي روجر أوف هوفدن اللذان يعدان من أفضل المدونات المعاصرة للسنوات الأخيرة من عمر مملكة بيت المقدس اللاتينية، أي حتى

سقوط القدس فى عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ. وبالتالي تم الاستناد فى اختيار المدونات الثلاث الأولى إلى أنها تناولت الحركة الصليبية وأن أصحابها يصنفون فى العادة على أنهم مؤرخون صليبيون أقاموا فى الشرق اللاتينى لفترات. أما اختيار المدونة الرابعة للمؤرخ روجر أوف هوفدن فقد اختيرت استنادا على أنه مؤرخ معاصر تماماً للمؤرخ وليم أوف نيويوره موضوع البحث، كما أنه مواطن، إنجليزى مثله؛ حيث انتميا إلى المدرسة الأسكتلندية فى الكتابة التاريخية فتشابهاً فى ثقافتيهما الدينية، وحرصا على تدوين تاريخ حكامهما الإنجليز. ومن ثم فيكون للمقارنة وقع أفضل وبعد أعمق.

بدأت وقائع مدونة وليم أوف نيويوره التاريخية بالتعرض إلى الظروف التى دفعت المؤرخ إلى تدوين كتابه التاريخى. فيذكر أنه كلف من قبل أرنولد Ernald رئيس دير ريفو Rievaulx بإنجاز هذا العمل بأجر مادي، الأمر الذى استوجب منه تقديم الشكر على ذلك. ثم انتقل المؤرخ إلى التعرض لجانب من مصادره التاريخية التى اعتمد عليها. فأشار إلى المؤرخ بيده Bede المتوفى عام ٧٥٣م<sup>(١)</sup>، كما تحدث عن أحد الكتاب ويدعى جوفرى أوف موناوث Geoffrey of Monmouth صاحب كتاب "تاريخ الملوك البريتون" History of the British Kings المتضمن كثيرا من القصص الأسطورية عن الملك الإنجليزى آرثر<sup>(٢)</sup>. كما تحدث عن أحد الكتاب ويدعى جوفرى أوف موناوث Geoffrey of Monmouth صاحب كتاب "تاريخ الملوك البريتون" History of the British kings

(1) William of Newburgh, op.cit., introduction.

(2) Catholic Encyclopaedia, op.cit.

وقد تعرضت الجزائر البريطانية فيما بين منتصف القرن ومنتصف القرن السادس الميلاديين لموجة أولى من الغزوات الجرمانية (الأنجلو-سكسون). ولما نشب الصراع مع أهل البلاد تحت قيادة آرثر تمكن من إحراز سلسلة من الانتصارات عليهم مما أبرز شخصيته بين شعبه فى شىء من الخيال بعد أن انتزع إعجابهم الشديد به، راجع: محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص ١٢١-١٢٢.

المتضمن كثيرا من القصص الأسطورية عن الملك الإنجليزى آرثر، ووجه وليم أوف نيويوره لكتابه نقدا لاذعا. وما لبث أن تناول المؤرخ وليم الشعوب المكونة للمملكة الإنجليزىة من بريتون Britons، ورومان Romans، وولشيين Welsh، وإنجليز Angles، وسكسون Saxons،

واسكتلنديين Scots، وجانباً من تصارعهم من أجل إقامة مجتمعاتهم وممالكهم، وفي خط متواز تعرض سريعاً لشخصيات تاريخية مثل الإسكندر الأكبر Alexander the Great، ويوليوس قيصر Julius Ceasar، وجعل من شخصية آرثر Arthur المعروفة في التاريخ الإنجليزي شخصية أسطورية مشيراً إلى بعض الملوك مثل ألفريد العظيم Alfred the Great ملك وسكس (٨٧١-٨٩٩م)، ومن خلفوه من ذريته. ثم شرع المؤلف في تكوين وقائع كتابه بادئاً إياه بالحديث عن الملك وليم الفاتح (١٠٦٦-١٠٨٧م/٤٥٨-٤٨٠هـ) الذي ذكره باسم William the Bastard أي وليم الوغد<sup>(١)</sup>.

وإذا ما انتقلنا إلى المادة التاريخية ذات الصلة بموضوع البحث المتعلقة بالحروب الصليبية نجدها بداية تعاني عند وليم أوف نيوبره مما تعانيه الكتابة التاريخية لدى مؤرخي أوروبا العصور الوسطى من مشاكل بشكل عام، ولعل إشكالية عدم الالتزام بالسياق التاريخي تعد واضحة في النص الواقع بين أيدينا. ويقر مؤرخنا بنفسه بهذا الأمر في مدونته. ويأتي اعترافه جلياً في الفصل الرابع عشر من الكتاب الخامس الذي خصصه للحديث عن تأسيس الدولة الإسلامية إيدانا ببدء الحروب الصليبية بعد صدامها مع الغرب حيث جاء به في أواخر المدونة، وختمه بعبارة "ولنعد الآن إلى ترتيب تاريخنا" توطئة منه لاستكمال الأحداث التي سبقت حملة هنري السادس الصليبية ١١٩٧م/٥٩٤هـ. ذلك كان مجرد نموذج لأداء المؤرخ بغرض تنبيه القارئ للأسلوب المتبع. وأوثر أن أقف بشكل أكثر تفصيلاً وأعمق تفسيراً لأسلوب كتابته في موضع آخر يأتي في ختام تناول مادته الصليبية كاملة في نهاية الدراسة.

وفي ضوء ذلك يحسن التقديم لموضوع البحث بما ورد على لسان المؤرخ وليم أوف نيوبره نفسه في الفصل المذكور بكتابه الأخير، إذ أن نصه يتصل بمحاولته تفسير قيام

(1) William of Newburgh, op.cit., introduction.

الحروب الصليبية بشكل فريد في وضوحه، ورغم نزوع المؤرخ إلى التحامل على الطرف الثاني في الصراع الناجم عن اندلاع الحروب الصليبية وهم المسلمون، إلا أن الباحث حرص على تقديم جانب مما ورد عن مراحل الإسلام الأولى وحركة الفتوحات الكبرى عنده التي كانت بمثابة السبب الحقيقي لهذا الصراع وذلك وفقاً لما رآه المؤرخ إذ يقول: "وبعد

عصر البابا المبارك جريجورى<sup>(١)</sup> Gregory اشتبك جيش وثنى من الفرس ضد المسيحيين واقتلعوا الديانة المسيحية منها حيث إنها كانت بلا قوات تدافع عنها<sup>(٢)</sup>. ذلك أن كسرى فارس الثالث أعلن الحرب على الإمبراطورية البيزنطية ووصل بقواته خلقدونية فى عام ٦٠٨م. هذا فى اتجاهه، كما تم الاستيلاء على سوريا وبيت المقدس فى عام ٦١٤م. وعلى مصر فى ٦١٦م. فى اتجاه آخر. وكان سقوط بيت المقدس بمثابة كارثة دينية بالنسبة للمسيحيين إذ استولى الفرس على الصليب "الحقيقى" (صليب الصلبوت) مما أعطى تلك الأحداث صبغتها الدينية؛ فتحفز الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) لصددهم، وتمكن من ذلك فى الفترة الواقعة من ٦٢٢-٦٢٨م.<sup>(٣)</sup> فى الوقت الذى أخذت فيه قوة ثالثة فى البروز على المسرح العالمى ألا وهى قوة المسلمين.

ويواصل مؤرخنا روايته فى هذا الصدد قائلاً: "وقد أعقب الفرس فى هذا المسار الهاشميون، وهم الذين بالأحرى يطلق عليهم اسم العرب المسلمين وبشكل أقرب إلى الصحة الهاجريين<sup>(٤)</sup> Hagarenes وهم يعملون تحت قيادة [على حد زعم المؤرخ] محمد — (١) المقصود به بابا روما الشهير جريجورى الأول الذى تولى الكرسي الرسول ما بين ٥٩٠ - ٦٠٤م.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk. 5, Ch. 14: 1, 3.

(٣) جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، الطبعة الثالثة، اسكندرية، ١٩٧١م، ص ٩٧-١٠٧.

(٤) نسبة إلى السيدة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام الذى أنجب منها إسماعيل عليه السلام، ومما قيل عنه أنه من المستعربة، وتعد قبيلة بنى إسماعيل من جرهم التى أقامت فى مكة، والقبيلة تنقسم إلى عمارات ومنها قريش، والعمارة تنقسم إلى بطون مثل بطن بنى مندى، وتنقسم البطن إلى أفخاذ مثل فخذ بنى هاشم وبنى أمية، وينقسم الفخذ إلى فصائل كفصيلة بنى العباس، عم الرسول عليه الصلاة والسلام. انظر: القلقشندى (ت ٨٢١/١٤١٨م) أبو العباس أحمد بن على بن أحمد عبد الله: حياية الأرب فى معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإيبارى، طبع دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص ١١-١٤.

الرسول" ..... ولما هفت إليه قلوب من حوله من عشيرته بل وكثير من غيرهم بمحض إرادتهم وأسندوا إليه جميع أمورهم؛ غزا الأمم المجاورة، وبداية قام بغزو البلاد المسيحية الواقعة فى الشرق [حيث بلاد الغساسنة] ثم ولى وجهه بعد ذلك تجاه الأراضى الخاضعة للدولة الفارسية [حيث بلاد المناذرة]. وعلى الرغم من أنه كان يبدو متديناً فى كل أمر إلا أنه نجح بشتى السبل فى قيادة القوم الذين غزاهم نحو دينه بأن أبقى على شعائهم كما أبقى

على وثنية الفرس الذين أخضعهم، إلا أنه لم ينجح فى إخضاع المسيحيين كافة. ومع ذلك فقد انحسرت المسيحية حتى كادت أن تنقرض فى بلاد مصر وليبيا [أى الشمال الأفريقى] وما بين النهرين [أى بلاد العراق] وسوريا وهى ممالك الشرق ذات الشهرة العتيقة فى اعتناقها الديانة المسيحية فترة ما قبل سيادة المسلمين عليهم<sup>(١)</sup>.

ثم استمر المؤرخ فى تشويبه لرسالة الرسول (عليه الصلاة والسلام) وروى قصصاً ملوفاً الغلو فى الكراهية والبهتان<sup>(٢)</sup>. ومع ذلك كله فقد " كان المسلمون يدعون بأنهم أرقى من قومنا [الأوروبيين] فى اقتصادهم"، هذا وقد شغلت قضايا تحريم أو إجازة بعض الأطعمة والطقوس وموقف المسيحية والرهبان منها مقارنةً بالإسلام اهتمام المؤرخ على مدى فقرات<sup>(٣)</sup>.

ما لبث أن انتقل وليم أوف نيوبره بعد ذلك إلى الحديث عن المسلمين فى المرحلة التالية لوفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام) حيث قال: "ازدادت تلك الطائفة الدينية قوةً وذلك بعد أن أصابت عديداً من المقاطعات بالعدوى (!!)" حيث تمكنوا من الاستيلاء على الجزء الأعظم من العالم إذ أن هذا الرجل [النبي محمد عليه الصلاة والسلام] ترك من خلفه أشياء أخذوا عنه مهارته وقوته فأخضعوا أهل فارس الذين كانوا فى ذلك الوقت أقوى أمم الأرض قاطبة حيث دانت إمبراطوريتهم بكاملها لحكم العرب بعد أن انتشر الإسلام فيما بينهم. كذلك اتجه المسلمون إلى آفاق أخرى من العالم بغرض نشر دينهم ونجحوا فى ضرب الحصار فى ظروف صعبة حول مدينة القسطنطينية تلك المدينة التى كانت تنعم، وبلاد اليونان [حيث الإمبراطورية

(1) William of Newburgh, op.cit., bk. 5, Ch. 14: 1-3.

(2) Ibid, bk. 5, Ch. 14: 3-7.

(3) Loc.cit.

البيزنطية] بإخلاصها للمسيحية وما لبثوا أن شقوا طريقهم إلى أفريقيا، تلك القارة التى كانت تحت الحكم الرومانى بيد أنها كانت تنن من وطأة الحروب الأهلية وبدون عظيم مقاومة تمكنوا من اجتياح هذه الولايات مترامية الأطراف غير مكتفين بالهجوم عليها، وقضوا على المسيحية فيها التى كانت قد انتشرت منذ عصر قنسطنطين الكبير Constantine the Great [الإمبراطور البيزنطى ٣٠٦-٣٣٧م] وبرز فى تلك البلاد أبطال شديدي البسالة فى العقيدة كالشهيد سبريان<sup>(١)</sup> Cyprian

وواضع النظريات المجيد أوغسطين Augustine هذا الألمعى بحر الحكمة المسيحية<sup>(٧)</sup>. وها هم المسلمون لا يزالون يسيطرون على تلك البلاد حتى يومنا هذا.

لم يكن المسلمون راضين عما أحرزته المسيحية من نجاحات؛ لأنهم وبإصرار غريب قاموا بغزو أسبانيا التي يفصلها عن أفريقيا مضيق ذو عرض غير كبير، واستولوا على جزء مهم منها، وهو الذى يحوزونه حالياً باعتباره امتداداً لديانتهم. كما عبروا جبال البرانس أيضاً التى تفصل أسبانيا عن فرنسا، وتقدموا فى مواجهة حماسة الفرنسيين

(١) حمل سبريان لقب قديس، ولد فى أسرة وثنية حوالى عام ٢٠٠م. وتلقى تعليمه فى أسقفية قرطاج بشمال أفريقيا، وما لبث أن أصبح له أفكاره وتعاليمه التى لقيت صدى واسع بين العامة والفقراء، كما لعبت دوراً مميّزاً فى الحفاظ على اللغة اللاتينية التى كتب بها الإنجيل فى العصور الوسطى، فبرز واحداً من أعظم ثلاثة أساقفة فى أفريقيا عرفتهم الكنيسة، كما يعد من أكبر من وضعوا نظمها، امتدت شهرته إلى كنائس غالة وأسبانيا غرباً، كما اشتهر عنه محاربه للهراطقة والخروج عن الدين الكاثوليكي، وقتل إبان موجة الاضطهاد التى شهدتها قرطاج فى أواسط القرن الثالث الميلادى. فأصبح يمثل أول شهداء الكنيسة فى شمال أفريقيا. ولمعرفة المزيد راجع:

Raven, Suzan, Rome in Africa, 3<sup>rd</sup> ed., London, 1992, pp. 124, 157-161, 167-168.

(٢) ينتسب القديس أوغسطين إلى مدينة هيبو Hepo بإقليم نوميديا (الجزائر) بشمال أفريقيا ولد بها عام ٣٥٤م. كان وثنياً ماجناً ثم اعتنق الكاثوليكية وأصبح حجة فى الشئون الكنسية حيث يعد من أبرز فلاسفة المسيحية بعد أن وضع عدة نظريات فى الدين شملت مؤلفاته، ولعل أهمها كتاب مدينة الله City of God، الذى دافع فيه عن المسيحية ضد الفلسفة الوثنية، وقد تأثر رجال الدين والرهبان بما ورد فيه من أفكار كثيرة، كما ترك أثراً فى تنظيم الكنيسة وإصلاحها، وجعلته مؤلفاته أحد الأربعة الذين وضعوا النظريات التى بنيت عليها النظم الكنسية وعليه ينسب إليه أنه هو الذى أتم التطور اللاهوتى الغربى، وزود الكنيسة بالآراء التى غدت دعامة الفكر المسيحى الغربى لألف ونيف من السنين، ونظراً لانتشار المذهب الدوناتى المخالف للكاثوليكية فى شمال أفريقيا خاض ضد أتباعه حرباً ضروس. وتوفى أثناء حصار مدينته هيبو فى عام ٤٣٠م. انظر:

Raven, Suzan, op.cit., pp. 123-124, 174-195.

المشتعلة وفقاً لمخطط، تحدوهم الأمانى آملين أن ينشروا ديانتهم فى شتى أرجاء أوروبا، كما سبق لهم فعله فى البلاد الأخرى، لكن الله القهار الجبار ذو الحكمة، فى وسعه أن يوقف هذا السيل الجارف إذا ما شاء<sup>(١)</sup>. وها هم قد واجهوا من صدهم عن إتمام زحفهم التائر؛ ففى الوقت الذى تمكن فيه العرب المسلمون من الانتشار فى مملكة فرنسا مستغلين انهيار

الإمبراطورية الرومانية، كان الفرنج قد قاموا باتخاذ التدابير اللازمة والاستعداد لمواجهة تلك الحملة، ولذا عاد العرب المسلمون أدرجهم مرةً أخرى إلى أسبانيا.

لعل عرض هذه الفقرات في البداية يعد خبير ما يمكن أن نستهل به الدراسة كمقدمة تاريخية لها ففيها تناول المؤرخ تاريخ صدر الإسلام وأثر ظهور هذه الديانة على البلاد القوية المجاورة لجزيرة العرب بعينه هو، فتعرض إلى الإمبراطورية الرومانية بعدما أصابها الوهن، وأصبحت عرضة لهجمات بلاد فارس الذين خلفهم المسلمون في عداة الإمبراطورية البيزنطية، وكما رأينا أشارت إليهم المدونة بالعرب أو الهاشميين أو بنى هاجر Hagarenes. وكالت لهم ولرسولهم محمد (عليه الصلاة والسلام) اتهامات باطلة عديدة، ثم تعرضت لصفات الرسول (عليه الصلاة والسلام) الخاصة ونجاحه في إقناع تابعيه بالدعوة لما كان لديه من قدرات ومهارات وحسن بيان، وأنه لم يكتف بأولئك الذين النقوا من حوله، إنما شرع في توسيع دولته على حساب الجيران. وبالفعل ترتب على مهاجمة بلاد فارس أن دخلت في الإسلام. ثم ما لبثت أن انضمت الشام ومصر وأفريقيا وأجزاء كبرى من أسبانيا غرباً، وكان كل ذلك على حساب الوجود الروماني المسيحي فيها. وأدرك المؤرخ دور الفرنجة في وقف الزحف الإسلامي في الغرب عند جنوب فرنسا حيث معركة بلاط الشهداء (٧٣٢م/١١٤هـ). وعلى كل فكتابات صاحب المدونة تنم عن أنه اطلع على جوانب من التاريخ والدين الإسلاميين بيد أنه دائماً ما كان ينظر إلى معتقيه على أنهم مغتصبون للأراضي المسيحية التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية دون إدراك منه بارتضاء معظم شعوبها في الشرق هذا الدين. بينما نجد المؤرخين الصليبيين المعاصرين قد درجوا على رد اندلاع الحروب الصليبية إلى رغبة

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.5, Ch. 14: 8-12.

ويأتي مستشهداً بالعهد القديم "وقلت إلى هنا نأتى ولا نتعدى، وهنا تتخم كبرياء لحجك" [أيوب ١١:٣٨]. الكنيسة ومسيحيي أوروبا في تخليص الضريح المقدس من أيدي المسلمين بالدرجة الأولى<sup>(١)</sup>. ويستشف من ذلك أن دافع الحروب الصليبية في نظروليم أوف نيوبره يتمثل في الدوافع السياسية وعلى رأسها الرغبة في إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة باسترداد ما فقدته من أراضي من أيدي المسلمين، وهذا يدل على أن مؤرخنا لم يكن تقليدياً في تقييمه للأحداث التاريخية رغم تعليمه الديني، وإن كانت لديه إشارات لا ينتفى معها وجود دوافع

دينية أيضا يمكن ملاحظتها في ما ذهب إليه المؤرخ عن الإسلام والمسلمين، وما سمحت به الشريعة الإسلامية أو حرمتها، في حالات مثل: إباحة تعدد الزوجات، وتحريم الخمر، وتحريم أكل لحم الخنزير، وإباحة ختان الرجل، وطهارة البدن بالوضوء. ومن ذلك أيضاً ما ورد في أول إشارة للمؤرخ وليم أوف نيويره عن الحروب الصليبية؛ حيث أطلق عليها الحروب المقدسة، وذلك في الفصل الثاني من كتابه الأول<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا الفصل شرع المؤرخ في الحديث عن تاريخ إنجلترا بعد وفاة الملك وليم الفاتح (١٠٦٦-١٠٨٧م / ٤٥٨-٤٨٠هـ)، وكيف آل حكمها إلى ابنه وليم روفوس William Rufus (١٠٨٧-١١٠٠م / ٤٨٠-٤٩٣هـ)، وليس لابنه الأكبر روبرت كارثوس<sup>(٣)</sup> Robert Curthos، ثم جاء وليم أوف نيويره بمادة تعد أول ما يمكن رصده من تأريخه لأحداث الحروب الصليبية على مدى كتبه الخمسة حيث قال: " كان أخو وليم الأكبر روبرت الذي كان من الطبيعي أن يخلف أباه في العرش أقل عجرفة وشراسة منه،

(1) Fulcher of Charters, op.cit., pp.60-67; Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, en: Recueil des Historiens des croisades, Historiens Occidentaux, tome III, Paris, 1866, pp.292-302; William of Tyre, op.cit., pp.336-337, 391.

(٢) وضع تحت عنوان: "وليم روفوس- الملك النورمندی الثاني لإنجلترا وأيضاً حول الحملة على القدس". أنظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 2: 1-5.

(٣) عندما توفي وليم الفاتح William the Conqueror عام ١٠٨٧م. توج ابنه وليم روفوس ملكاً حتى عام ١١٠٠م. رغم أنه لم يكن الابن الأكبر بتوصية من أبيه. فحكم إنجلترا حكماً استبدادياً، ودخل في صراع مع أخيه الأكبر غير الشرعي روبرت حول العرش الإنجليزي إلى أن اغتيل وليم أثناء رحلة صيد في عام ١١٠٠م. راجع:

William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 2:1; cf. also, Lane Poole, Austin, from Domesday Book to Magna Carta, 1087-1216, 2<sup>nd</sup> ed., Oxford, 1954, pp.113-115.

لكنه أثبت أثناء إدارته لدوقية نورمندی<sup>(١)</sup> Normandy المحدودة كفاءة أقل لتؤكد أنه لم يكن صالحاً لإدارة المملكة الإنجليزية في حين كان في غاية البراعة في التعامل مع السلاح حتى أنه كان متميزاً بصورة واضحة بعظم شأنه وتفوقه بين أكثر قادة العالم نبلاً وذلك أثناء حملته [ الصليبية] الشهيرة والمجيدة على بيت المقدس ...<sup>(٢)</sup> ثم واصل حديثه عن جوانب أخرى

داخل المملكة الإنجليزية ، كالصراع على السلطة، وظهر هنرى الأول Henry I (١١٠٠-١١٣٥م / ٤٩٣-٥٢٩هـ)، وبعض من أحوالها الدينية.

ما لبث أن عاد المؤرخ ليستأنف حديثه عن الحملة الصليبية الأولى فذكر ما نصه " وأثناء فترة حكم الملك هنرى [الأول] أشعل الله حماسة المسيحيين ضد المسلمين؛ إذ كان المسيحيون يمتلكون بمقتضى شرع الله ومنذ أمدٍ بعيدٍ حرّات الله على أنه حق موروث، ولعلّى أقصد بذلك تلك الأماكن المقدسة التي بدونها لا تستقم حياتنا، وعليه احتشدت أعداد كبيرة من المسيحيين على قلب رجل واحد كرد فعل لما أقدم عليه بابا روما أوربان Urban [هو أوربان الثانى ١٠٨٨-١٠٩٩م / ٤٨١-٤٩٢هـ] ومن ناصره فى خدمة الرب الأمر الذى ترتب عليه أن اخترق أشجع أمراء الغرب -الذين ميزوا أنفسهم بالصليب شارة السيد المسيح - ممالك الشرق على رأس جيش ضخم وبفضل جهودهم الصادقة نجحوا وبعد مسيرة مرهقة للغاية فى الاستيلاء على بلاد بالغة الروعة مثل نيقيا Nicea

(١) تميزت دوقية نورماندى فى شمال فرنسا فى تلك الآونة بأنها أفضل تنظيمًا من الناحية الإدارية، ومع ذلك فقد كانت أقل ثروة، وكان وضعها الجغرافى لا يسمح لها بالتوسع. إلا أنه بفضل طموحات أدواقها كانت لها اليد العليا بعد الغزو النورمانى لإنجلترا ١٠٦٦م. ومنذ ذلك الوقت أصبح النورمان أقل خطراً على جيرانهم داخل القارة الأوروبية ذاتها. راجع :

Warren, W.L., Henry II, ed. London, 1977, p.7.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 3: 2.

وصف روبرت الابن الأكبر لوليم الفاتح بدمائة الأخلاق وحسن التعامل والشجاعة، بيد أنه كانت تنقصه الكفاءة وحسن الإدارة. استقل بحكم مقاطعة نورماندى، بينما واصل المطالبة بحقه بالعرش الإنجليزي فاستأنف غزو إنجلترا بعد وفاة أخيه. ولكن هنرى الأول Henry I (١١٠٠-١١٣٥م). تصدى له، بل قام فى عام ١١٠٦م. بغزو نورماندى وضمها إلى أملاكه. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م، ج ١، ص ٤٥٨.

[عاصمة دولة سلاجقة الروم] الواقعة فى إقليم بثنيا Bithynia ، وأنطاكية Antioch فى إقليم سوريا Syria، وأخرها مدينة بيت المقدس ذاتها . وكان واضحاً أن روبرت دوق نورماندى هو أبرز هؤلاء القادة. فقد كان عند إعداده لهذه الحملة العسكرية بالتعاون مع الأمراء المسيحيين الآخرين فقد وجد أن موارده المالية غير كافية وحينئذ رهن مقاطعة نورماندى إلى

أخيه وليم مقابل مبلغ كبير من المال مما أهله للانخراط في تلك الحملة الجلييلة. وبعد أن أنجز مهمته بنجاح عاد إلى بلده بعد غياب سنوات<sup>(١)</sup>.

هكذا لم يرتب مؤرخنا وليم أوف نيويبره أحداثه التاريخية بدقة، ومن ناحية أخرى لم يتطرق إلا شذراً للدور الكبير الذي قام به البابا أوربان الثاني في الدعوة للحرب الصليبية منذ إلقائه للخطبة الشهيرة في مؤتمر كليرمونت Clermont في عام ١٠٩٥ م. / ٤٨٨ هـ. وأورد نصها المؤرخ فولشر أوف شارتر الذي كان من الحضور والمستمعين لخطبة البابا<sup>(٢)</sup>. وبينما صممت مدونة المؤرخ وليم أوف نيويبره عن إيراد أية تفاصيل عن جهود روبرت النورمندي في إعداد جيشه الصليبي، إلا أننا لحسن الحظ نجد تفاصيل ذلك عند المؤرخ فولشر أوف شارتر أيضاً الذي انضم إلى جيش روبرت وكان في صحبته شاهدا للعيان. ومما ذكره أن الأمير اصطحب معه ستيفن كونت بلوا Stephen of Blois وشارتر Charters زوج أخته بالإضافة إلى عديد من النبلاء والفرسان والرجال من النورمان والإنجليز ومن مقاطعة بريتانى Brittany والأراضي المنخفضة. وتزايدت أعداد الجند يوماً بعد يوم حتى غدوا يشكلون عدة جيوش، وواصلوا مسيرتهم حتى آسيا الصغرى على هذا النحو<sup>(٣)</sup>. ويقرر أحد المؤرخين المحدثين في دراسة أعدها: أن عدد

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 3: 4.

(٢) للوقوف على ما ورد في خطبة البابا أوربان راجع نصها في:

Fulcher of Charters, op.cit., pp.63-65.

اكتفى وليم أوف نيويبره في موضع لاحق بالإشارة إلى فضل البابا أوربان الثاني في إسقاط القدس. انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 15: 3-4.

(3) Fulcher of Charters, op.cit., pp.73, 75, cf. also William of Tyre, op.cit., Vol. I, pp. 148-149, 177-178.

تزوج ستيفن كونت بلوا من إديلا Adela ابنة وليم الفاتح في عام ١٠٨١ م. وترتب على هذه الزيجة أن أصبح لإقطاعية نورماندى Normandy وضعية سياسية خاصة. انظر:

Warren, W.L., op.cit., Vol. 1, p.13.

الفرسان الذين خرجوا في جيوش روبرت يقدر بحوالى ألف فارس عدا المشاة<sup>(١)</sup>. وقد صنف حملة روبرت على أنها فرنسية العنصر نظراً لأنها خرجت من نورمنديا<sup>(٢)</sup>. وأوضح لنا فولشر أوف شارتر أنه عندما اكتملت الاستعدادات تحركت فرق جيش روبرت صوب الجنوب، فباركها البابا أوربان قبل أن تنتقل إلى السواحل الإيطالية ومنها إلى القسطنطينية. وفي مايو

١٠٩٧م/٤٩٠هـ. شاركت قوات روبرت بقية الجيوش الصليبية التي يقودها الأمراء في المعارك في آسيا الصغرى.<sup>(٣)</sup> كذلك لم يكشف وليم أوف نيوبره عن تواريخ أحداث هذه المرحلة بوضوح في حين كشف غيره عنها حيث لم يحدد تاريخ خروج روبرت بجيشه في عام ١٠٩٦م/٤٨٩هـ. وأن وليم روفوس وصل نورمندی ليتسلمها من أخيه روبرت في شهر سبتمبر من ذلك العام<sup>(٤)</sup>.

وفى هذا الإطار، وعن زحف الأمراء الصليبيين صوب الشام اكتفى وليم أوف نيوبره بالإشارة إلى أنه رغم قلة الأعداد في جيوشهم، وما لاقوه من عناء في الطريق، إلا أنهم جاسوا ممالك الشرق وتمكنوا من الاستيلاء على جانب منها مثل مدينة نيقية<sup>(٥)</sup> بمساعدة من الدولة البيزنطية، وذلك في ٢٦ يونية سنة ١٠٩٧م/ رجب ٤٩٠هـ التي استعادت السيادة عليها. ولم يلبث الصليبيون أن تقدموا، وترأس روبرت النورمندی جانباً مهماً من الجيش<sup>(٦)</sup>. وبعد أن أحرزوا نجاحاً ملحوظاً، فرضت طموحات قادتهم تحديد اتجاهات جديدة لمسيرتهم الصليبية، فانقسموا إلى شطرين: بأن اتجه تنكرد Tancred ومعه بلدوين أوف بوايون Baldwin de Boulogne إلى قيليقية جنوب شرق آسيا الصغرى المتنازع عليها بين الأرمن والسلاجقة، بينما شق الجيش الصليبي طريقه في بلاد الشام<sup>(٧)</sup>. وهذه الوجهة لجيش القائدين تنكرد وبلدوين كانت تعنى البداية الحقيقية في تأسيس الكيانات الصليبية الرئيسية في الشرق اللاتيني؛ إذ نتج عنها قيام إمارة الرها كأول إمارة لهم هناك.

(1) C.F.Runciman, S., A History of the Crusade, 3 Vols., Cambridge, 1951-1954, Vol.I, Appendix II, pp.336-341.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، الطبعة السابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م، ج ١، ص ١٢٥.

(3) Fulcher of Charters, op.cit., pp.73-74, 81-82.

(4) Roger of Hovden, op.cit., Vol.I, p.180.

(5) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 3: 4-6.

(6) Fulcher of Charters, op.cit., p.82; William of Tyre, op.cit., Vol.I, pp.152-153.

سعيد عاشور: المرجع السابق، ج ١، ص ١٣٠.

(7) Oman, Ch., History of the Art of War in the Middle Ages, 2nd ed., 2 Vols., New York, 1924, p.272.

وحتى هذه المرحلة من الحملة الصليبية الأولى نلاحظ أن المادة التاريخية عند مؤرخنا جاءت مختصرة غير وافية مما تطلب استكمالها من مصادر أخرى، وذلك فيما يتعلق بدور الإنجليز في الحملة الصليبية الأولى وفي الواقع فإن صمت المدونة عن هذه الأحداث لا يمكن تبريره إلا ببعدها الزمني عنها، فضلاً عن اصطباغ الحملة بعنصرها الفرنسي

النورمندی. ومن ثم لم تجد لها وقعا قويا عند مؤرخ إنجليزي رغم الوحدة السياسية التي كانت تجمع الإقطاعية بالدولة الإنجليزية.

وفى هذا الصدد اهتم المؤرخ وليم أوف نيويوره بتقديم عرض موجز لتاريخ مدينة الرها القديم منذ عصرها المسيحي الأول وصولا الي العصر الصليبي، وذلك في مرحلة لاحقة من المدونة حيث الفصل الثامن عشر من الكتاب الأول<sup>(١)</sup> كافتتاحية لأحداث تتعلق بالحملة الصليبية الثانية. وفيه يقول: "في العام الثاني عشر من حكم الملك ستيفن<sup>(٢)</sup> Stephen وقعت أحداث تلك الحملة التي حظيت باهتمام فائق من الجميع... ويرجع سبب قيامها إلى ما يأتي سرده؛ تقع فيما وراء نهر الفرات Euphrates العظيم حاضرة إقليم ميزوبوتاميا Mesopotamia [أى بلاد الرافدين] وهي مدينة نبيلة، معروف اسمها الآن بمدينة Rohisia وبشكل أصوب مدينة Edessa<sup>(٣)</sup> [أى الرها] التي أخذت في

(١) لموضوع تحت عنوان: "عن أسباب الحملة الصليبية الثانية على القدس". انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 18: 1-4.

(٢) هو الملك ستيفن أوف بلوا (١١٣٥م/٥٢٩هـ-١١٥٤م/٥٤٩هـ) ابن الأمير ستيفن كونت بلوا الذي كان قد شارك في الحملة الصليبية الأولى.

(٣) بشأن مسمى الرها؛ يلاحظ أن المؤرخ جمع بين مسماها القديم Orrhei واسمها الآخر Edessa في كلمة واحدة. انظر :

William of Newburgh, Loc.cit.

تعرضت المصادر السريانية المعاصرة للحروب الصليبية لمسمى المدينة القديم "الرها". وأوضحت أنه يتألف من شقين: أور Our بمعنى مدينة، ولما كان يسكنها الكلدانيون أضيف إلى هذا الشق هاى hai؛ لتصبح أورهاى، أى مدينة الكلدانيين. ولمعرفة المزيد راجع:

Michel le Syrien, Chronique de Michel le Syrien, éditée et traduite en français par J.B. Chabot, Tome III, Paris, 1906, p.278.

وعن ما شهدته المسمى من تطور وتحريف عبر عصور مختلفة راجع: علية عبد السميع الجنزورى: إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢٣-٢٥. وتخلص الباحثة إلى أن أشهر مسميات المدينة على مر العصور هي: الرها العربية وأدسا الإفرنجية، وأورفا الحالية.

التبشير بالمسيحية منذ عصر [الإمبراطور] قنسطنطين الكبير<sup>(١)</sup> والمعروف عنها اقتناؤها ذخائر النبي توماس Thomas المبارك<sup>(٢)</sup>، التي نُقلت من بلاد الهند إلى هناك، ويُشهد للمدينة حماسها الشديد والمبارك تجاة العقيدة الكاثوليكية.<sup>(٣)</sup> "ولعل المؤرخ يقصد مذهب الطبيعتين المعروف في ذلك العصر، ثم تعرض لجانب من دور أهالي الرها المتقانى من أجل الدين،

والى أى حدٍ أثاروا التجمع فى كنيسة القديس توماس رغم معرفتهم لإقدام الوالى الرومانى على قتلهم داخلها مضحين بأنفسهم عازمين على الشهادة، إبان عصر الإمبراطور فالنز Valens (٣٦٤-٣٧٨م) الأريوسى المذهب.

وما برح المؤرخ مواصلة استعراض كفاح أهالى الرها الكاثوليك فى المرحلة الثانية فيقول: "كذلك حينما قدر الله للمسلمين أن يستأصلوا شأفة المسيحيين والاستيلاء على بلادهم النبيلة بشكلٍ لا يمكن تصوره حيث دانت لهم مدن مثل : الإسكندرية، أنطاكية، بيت المقدس، ودمشق فضلاً عن المدن المسيحية الأخرى فى مجمل مصر وسوريا، وتم القضاء على كل ما له علاقة باسم السيد المسيح، ظلت مدينة الرها وحدها تلعب دور حامية حمى المسيحية ليس فقط فى حدود أسوارها، ولكن فى عموم الإقليم الواقعة فى زمامه، وذلك رغم أنها كانت محاطة بكثير من الأعداء شديداً بالبأس، ومع ذلك لم يتمكنوا من غزوها حتى جاءت الحملة الصليبية الأولى".

(١) دخلت الرها فى حوزة الإمبراطورية الرومانية عام ٢١٦م. ثم دخلت تحت سيطرة مملكة تدمر ٢٥٧-٢٧٣م، وذلك قبل دخولها المسيحية.

Encyclopedia of Islam, art. Rohha.

(٢) من الثابت أن من أسباب ارتفاع مكانة مدينة الرها الدينية أنها تضم رفات بعض الحواريين مثل توما Thomas وتداوس Tedaws . انظر: العهد الجديد: إنجيل متى: طبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٩٣٧م، ١٠:٣.

(3) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 18.

كانت الرها قد اتخذت اتجاهها غربياً عندما أعيد تأسيس كنيسةها على أسس من الاتحاد الوطيد مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وتم ذلك تحت رئاسة الأسقف بالوت. راجع: علية عبد السميع الجنزورى: المرجع السابق، ص ٢٩.

ثم انتقل المؤرخ من فوره إلى الحديث عن تاريخ الرها تحت حكم اللاتين أولى كياناتهم فى الشرق قائلاً: "وبعد وصول الصليبيين طلب أهل مدينة الرها الذين كانوا يعانون من غارات الأتراك المساعدات من [الذين أشار إليهم المؤرخ بكلمة] جيشنا ؛ فكان أول حاكم عليهم من بلاد غالة بلدوين Baldwin، أشجع القادة أخو جودفرى Godfrey [أوف بوايون Of

[Bouillon] الشهير . وعندما اعتلى بلدوين عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة أخيه جودفري حكم الرها عدد من القادة الآخرين الأقوياء<sup>(١)</sup>.

على ذلك ارتبط التاريخ لمدينة الرها عند وليم أوف نيوبره بدخولها المسيحية ثم شخصية قنسطنطين الكبير وثباتها على العقيدة الكاثوليكية. وبالفعل غدت الرها أحد المراكز الأولى للديانة المسيحية، الأمر الذى جعل كنيسة مقراً لمطرانية بلاد الرافدين<sup>(٢)</sup>. واتخذت المسيحية فيها طابعاً مميزاً؛ حيث أنها ظلت تتكلم السريانية واحتفظت بحكامها وثقافتها المحلية<sup>(٣)</sup>. ولذا أكد المؤرخ على فضلها فى المسيحية واقتنائها ذخائر الحواري توماس، بيد أنه لم يُشر إلى ما هو أكثر قداسة من ذلك وشائع عند المسيحيين ألا وهو احتفاظ المدينة بمنديل السيد المسيح<sup>(٤)</sup> مبرزاً تميزها أيضاً ببقائها على المسيحية حتى بعد الفتح الإسلامى مقارنةً بجميع البلاد المحيطة. وفى الواقع يسهل أن نلتصق فضل المدينة عند مؤرخين صليبيين آخرين<sup>(٥)</sup>. وهذا يُعد أمراً طبيعياً تداوله، خاصةً فى مرحلة الصراع بين الشرق والغرب.

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 18: 3.

(2) William of Tyre, op.cit., Vol. II, P. 158

(٣) علية عبد السميع الجنزورى: المرجع السابق، ص ٣٠.

(٤) يذكر المؤرخ يوسيبوس (٢٦٤-٣٤٠م.) إن السيد المسيح قد أوعز إلى توما أحد الحواريين الاثنى عشرالذى أرسل تداوس أحد التلاميذ السبعين لشفاء أبحاراً حاكم أديسا- الرها (١٣-٥٠م.). أما المنديل المقدس فقد شاع أنه إذا ما غسل السيد المسيح وجهه انطبعت عليه صورته. فأخذت هذه الصورة إلى الرها لتحتفظ المدينة من أجدائها. ولمعرفة المزيد راجع: يوسيبوس القيصري: تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقس داود، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٤٦، هـ. ٣.

(5) Anonymus, Gesta Francorum Iherusalem, ed. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, Tome III, Paris, 1866, p.543.

علاوةً على ذلك فإن هذا العرض من قبل المؤرخ وليم تعوزه الدقة، وتغلب عليه المبالغة فى إبراز عمق وشمولية الديانة المسيحية فيما بين أهالى الرها وإقليمها فترة قدرها هو بتسع مائة عام قبل الحروب الصليبية. فالثابت أن المؤرخ تأثر بما شاع عن المدينة من أنها حظت بوعد من السيد المسيح أطلقه لملكها أبحر- الذى عاصره- بأن المجاعة والفناء

لن يدخلها أبداً تلك المدينة، وأن أعداءها لن يتمكنوا أبداً من النيل منها<sup>(١)</sup>. وهو الأمر الذي لقي صدى وهوى عند الأهالي، مما أدى إلى اشتهاار المدينة وزيادة فضلها. ومن ناحية أخرى فإن تاريخ المدينة يؤكد وقوعها في أيدي المسلمين في عام ١٠٣٢م/١٨٠٤هـ صلحا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب<sup>(٢)</sup>. وظلت الرها تابعة للحكم الإسلامي حتى استولى عليها البيزنطيون في عام ١٠٣٢م/٤٢٤هـ على يد القائد جورج مانياخس George Maniaces، فظلت في حوزتهم حتى الغزو الصليبي<sup>(٣)</sup>. ومما يذكر أنه عندما دخل البيزنطيون الرها هجرها العرب ومعهم أهلها من المسيحيين الذين ألفوهم<sup>(٤)</sup>. وما لبثت أن هاجرت أعداد كبيرة من الأرمن إليها وهيمنوا عليها في عام ١٠٧٧م/٤٧٠هـ<sup>(٥)</sup>. الأمر الذي جعل أحد الباحثين يصفها بأنها منذ ذلك التاريخ غدت بمثابة جزيرة من المسيحيين داخل محيط من المسلمين الأتراك<sup>(٦)</sup>. ومن ثم فإن سقوط المدينة في يد المسلمين ثم في يد البيزنطيين الأرثوذكس ما يقلل من قيمة رواية المؤرخ وليم السابقة من استمرار المدينة قلعة تزود عن المسيحية الكاثوليكية في إقليمها.

(1) Grégoir le Prêtre, Continuation de Mathew d'Edessa's chronicle, Recueil des Historiens des Croisades, H.Arm., Vol.1, Paris, 1869, Tome I, p.159.

ولمعرفة المزيد عن رسالة الملك أيجر والرد عليها من السيد المسيح انظر: علية عبد السميع الجنزوري: المرجع السابق، ص ٣٠-٣١.

(٢) البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م). أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، القاهرة، ١٩٥٦م، طبعة أخرى، ج ٥، بيروت، ١٩٥٧م، ص ١٧٧.

(3) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956, p.285.

(4) Michel Le Syrien, Tome III, p.280.

(٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ١، ص ٩٧-٩٨.

(6) Grousset, R., L'Epopée des Croisades, Paris, 1939, p. 56.

أما الأتراك الذين واصلوا غاراتهم على الأرمن داخل الرها- وفقا لما ذكره المؤرخ- فلعلهم أولئك السلاجقة بداية من عصر السلطان ملك شاه (١٠٧٢-١٠٩٢م/٤٦٥-٤٨٥هـ) حيث نجحوا في الاستيلاء على مرعش فأخذها منهم الصليبيون في أكتوبر ١٠٩٧م/ذى القعدة ٤٩٠هـ بالتعاون مع الأرمن. وما لبث أهالي الرها من هذه الطائفة أن ساندوه في الاستيلاء على مدينة الرها. ولذا سعى بلدوين أوف بوايون إلى أن يكتسب

رضاءهم بالزواج من أردا Arda ابنة أحد أمراءهم، فتهيأت أمامه الظروف لتأسيس أولى الإمارات الصليبية فى الشرق ومقرها مدينة الرها<sup>(١)</sup>. وعن الخطوة التالية للصليبيين فقد توقف الجيش الرئيسى أمام مدينة أنطاكية ونجح فى إسقاطها فى أكتوبر ١٠٩٨م/ذى القعدة ٤٩١هـ.<sup>(٢)</sup> ولم ترد عند مؤرخنا إلا إشارة مقتضبة عن ذلك، بل إنه لم يتعرض إلى مسيرة الجيش حتى وصوله إلى مدينة بيت المقدس وفرض الحصار عليها. بيد أنه اكتفى فقط بالإشارة إلى سقوطها فى أيديهم وتولى جودفرى أوف بوايون الحكم فيها فى يوليو ١٠٩٩م/شعبان ٤٩٢هـ. وإذا ما كان المؤرخ قد أحجم عن الوقوف على هذه الأحداث تفصيلاً، إلا أنه فى موضع آخر تحدث عن فضل المدينة المقدسة لدى المسيحيين وتاريخها القديم. وكان أبرز ما ذكره عنها "أن الله اصطفى تلك الأرض وباركها" حتى جاء الصليبيون فى عام ١٠٩٩م/٤٩٢هـ وطردها المسلمين منها فى روح ملؤها الإصرار والهمة. وهذا تأكيد على إرادة الله بما كان للمسيحيين من حق وراثى فى الأراضى المقدسة<sup>(٣)</sup>. وبهذا الحدث نأتى عند نقطة النهاية بالنسبة لوقائع الحملة الصليبية الأولى عند مؤرخنا.

وحفاظاً على السياق التاريخى نعود لنوصل ما انقطع عند وليم أوف نيوبره عن دور روبرت النورماندى الصليبي حينما ذكر أن أقصى ما شرف به هذا القائد اشتراكه فى إسقاط هذه المدينة المقدسة، وكذلك مشاركته لهم فى الانتصار على الفاطميين فى معركة عسقلان فى أغسطس ١٠٩٩م/رمضان ٤٩٢هـ. "وبعد أن شعر أنه أدى واجبه المقدس

(1) Fulcher of Charters, op.cit., pp.89-92; cf. also William of Tyre, op.cit., Vol. I, P. 188.

(٢) راجع: الدراسة المتخصصة عن تلك الإمارة التى أقامها اللاتين فى الشرق فى: حسين محمد عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م./٥٦٧-٦٦٦هـ)، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.

(3) William of Newburgh, bk.1, Ch. 3: 1-2.

بنجاح غادر الأراضى المقدسة عائداً إلى وطنه نورمانديا فى عام ١١٠١م. بعد غياب سنوات". بيد أنه أرجع ما حققه روبرت من نجاحات إلى حدوثها فى عهد الملك هنرى الأول Henry I (١١٠٠-١١٣٥م) الذى حمل لقب هنرى الأصغر Henry the Younger. وذكر عنه أنه "رجل ودود وأن نجمه أخذ يبرز تدريجياً، حتى تمكن من تأمين عرشه وممتلكاته من إخوته غير الشرعيين والنبلاء الطامعين<sup>(١)</sup>". ويوضح المؤرخ وليم الصورى ذلك، فروى إنه حين عودة روبرت وجد الأمور قد تبدلت تماماً. فقد حدث أثناء تأدية واجبه الحربى المقدس

أن توفي أخوه الأصغر وليم روفوس دون وريث، الأمر الذي يؤول معه حكم إنجلترا إليه. غير أن أخاه هنرى قد شاع أن روبرت أصبح ملكاً على بيت المقدس، ولم تعد لديه نية العودة. فنجح بهذه الخديعة (فى تبوء العرش بدلاً منه وعبرهنرى البحر بقواته ونازل أخاه روبرت وأسره وألقى به فى السجن، حتى وافاه الأجل) وألت ممتلكاته إلى أخيه الملك. واللافت للنظر أن تأريخ هذه الأحداث لم يرد عند وليم أوف نيوبره إلا فى اقتضاب<sup>(٢)</sup>. والذى يلاحظ أنه سجل تاريخ عودة روبرت فى عام ١١٠١م، بينما سجله روجر أوف هوفدن فى العام السابق عليه سبتمبر ١١٠٠م<sup>(٣)</sup>. أما ستيفن كونت بلوا فقد عاد ثانية إلى فلسطين فى عام ١١٠٢م/٤٩٥هـ. غير أنه قضى نحبه فى ساحة القتال ضد الفاطميين ضمن أحداث حملة الرملة الثانية<sup>(٤)</sup>. ولم تشر مدونة وليم لهذه الحادثة.

من ثم لم يخص مؤرخنا صاحب المدونة أحداث الحملة الصليبية الأولى فى شقيها، وأعنى بهما ما يتعلق بتأسيس إمارة الرها، ثم ما يخص الاستيلاء على كل من أنطاكية وبيت المقدس باهتمام حتى تلك الإنجازات التى تتعلق بالإنجليز بوصفه مؤرخاً إنجليزياً، الأمر الذى كان واضحاً عند غيره من المؤرخين المعاصرين، وقامت عليها دراسات

(1) Idem.

(2) William of Tyre, op.cit., p.366, William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 3: 4-6.

(3) Roger of Hovden, op.cit., Vol.I, pp.191-192.

(4) Fulcher of Charters, op.cit., pp.167-169.

هذا وقد ترك ستيفن ابنين: هنرى Henry وستيفن Stephen فى سن صغيرة تحت وصاية خالهما الملك

هنرى الأول. وقد نشأ هنرى الطفل نشأة دينية بصفته راهباً. انظر:

Warren, W.L., op.cit., P. 13.

حديثاً تناولت المادة الواردة عندهم بالتحليل والدراسة<sup>(١)</sup>. وعليه يمكن القول أن ما قدمه المؤرخ من مادة تاريخية عن الأحداث المتقدمة فى الصفحات السابقة لا تعدو أن تكون مادة يغلب عليها التعميم دون التدقيق، اللهم إلا ما يخص مواطنه الأمير روبرت النورماندى الذى حظى منه بتسليط بعض الضوء عليه. كذلك يلاحظ أن المؤرخ اهتم بتاريخ عودة روبرت النورماندى إلى بلاده ووضع الإقطاعى فى ظل حكم أخيه. ناسباً إنجازات إنجلترا فى الحملة الصليبية الأولى إلى الملك هنرى الأول رغم أنه لم يسعفه الوقت لعمل شئ يذكر، فى حين كان الملك الإنجليزى الذى خرجت الحملة فى عهده هو سلفه الملك وليم روفوس. وعليه

نخلص إلى أن وليم أوف نيوبره غير جدير بأن يعد من مؤرخى الحملة الصليبية الأولى المبرزين، خاصة فيما يتعلق بمرحلة الزحف على بلاد الشرق. والاستيلاء على بيت المقدس؛ نظراً لشح ما ورد فى كتاباته فى هذا الصدد، إضافة لعدم التدقيق والتعمق فى تناول أحداثها مقارنة بالأعمال المصدرية الصليبية الأخرى التى تم إقرانها بالنص.

ما لبث أن استأنف وليم أوف نيوبره حديثه عن مدينة الرها فترة الحكم الصليبي بعد أن صارت حاضرةً لأولى الإمارات الإفرنجية فى الشرق الإسلامى. حيث تناول باقتضاب أمراءها الصليبيين الذين خلفوا بلدوين عليها ووصفهم بالأقوياء، ثم أضاف: "وكان جوسلين Jocelin آخر هؤلاء إذ حاول هو أيضاً التمسك بالدين المسيحى، وفى ظل حكمه قُدر لأحد القادة الأرمن الخائنين الذى كان من الحُكام المحليين وآلت إليه إحدى القلاع المهمة لمجاورتها السور بحكم الوراثة أن يكون سبباً فى تسليم المدينة للأتراك؛ ذلك أنه كانت لديه ابنة فائقة الجمال. افتتن جوسلين بها فاخطفها واعتدى عليها. وقد فُجع الحاكم الأرمنى لما حدث لابنته من اعتداءٍ على شرفها، ولكنه أخفى حزنه وآلامه بمهارة. لحين أن يشمل باننقاهم إعدداً أكبر وفى ليلة عيد الميلاد [الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ١١٤٤م/٢٨ من جمادى الآخر ٥٣٩هـ] أكثر المناسبات قداسةً وبينما كانت الصلوات المقدسة مقامة داخل الكنائس وفقاً للطقوس المسيحية أدخل هذا الخائن الأتراك سرّاً إلى

(1) Tyreman Christopher, *England and the Crusades 1095-1588*, Chicago, 1988, pp.13-84.

سعيد السيد فرغلى: دور إنجلترا فى الصراع بين المسلمين والصليبيين ١٠٩٥-١١٨٩م/٤٨٨-٥٨٥هـ،

رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، آداب الإسكندرية، عام ٢٠٠٠م، ص ٥٤-١٣٥.

المدينة بموجب اتفاق مسبق فاندفعوا عاملين السيف فى الأهالى العزل أثناء مراسم الصلوات فى أمان، وقاموا بذبح رئيس الأساقفة، بينما كان واقفاً عند المذبح حسبما ورد إلينا<sup>(١)</sup>. وقد وجد المعتدون فى هؤلاء الأمنين الفرصة المواتية لمباغتتهم واستحلال دمائهم إذ كانوا متعطشين لدماء المسيحيين بلا ارتواء. وهكذا وعن طريق الخيانة تسبب جوسلين، تلك الشخصية المختلة الفاجرة فى تسليم المدينة العتيدة التى ظلت ترفع شعار المسيحية مدة تسعمائة عام إلى الأتراك، ومن ثم سقطت المدينة فى أيدي المسلمين بعد أن ظلت تحافظ على استقلالها لعدة عصور متخذة موقف المدافع عن الديانة المسيحية، وخضعت لأكثر الأمم وضاعةً على وجه الأرض. وفضلاً عن ذلك واصل الأعداء عصفهم بالإقليم؛ فتمكنوا

من اجتياح حدوده من أدناها إلى أقصاها، ونجحوا في استئصال كل الوجود المسيحي في الجانب الآخر من نهر الفرات حيث الشرق بعد أن أُجبرت على الدخول تحت سلطانهم المشئوم<sup>(٢)</sup>.

وللوقوف على مدى قدرة وليم أوف نيوبره على التأريخ لإمارة الرها الصليبية نجده وقد تنبه لقيام أمير يدعى بلدوين وهو أخ لجودفري بتأسيسها، بيد أنه لم يشر إلى الأمير التالي له سميّه، بلدوين أوف بوج Baldwin Of Bourg (١١٠٠-١١١٨ م/ ٤٩٣-٥١٢ هـ). كذلك اكتفى بالإشارة إلى أمير يدعى جوسلين ووصفه بصفات القوة تارةً ونعوت الخلاعة والتهتك تارةً أخرى؛ بالرجوع إلى المصادر الأخرى يتضح أن جوسلين الذي أشار إليه المؤرخ بداية هو الأمير جوسيلين كورتناي Courtenay الأول الذي أدار الإمارة (١١١٩-١١٣١ م/ ٥١٣-٥٢٥ هـ) بقوة واقتدار. أما إشارته إلى الاسم ذاته للمرة الثانية فهي تتفق مع شخصية ابنه الأمير جوسيلين الثاني الذي حكم الإمارة (١١٣١-١١٥٠ م/ ٥٢٥-٥٤٥ هـ). أما الأمير الأرميني المشار إليه فهناك أكثر من أمير قدم ابنته

(١) أشار وليم الصوري إلى اسم رئيس الأساقفة وهو هيو الثاني Huge II الأسقف اللاتيني الذي دُبح في المحراب وكان يتزعم المقاومة الصليبية ضد المسلمين.

William of Tyre, op.cit., Vol. II, p.143.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 18: 3.

كان حكام الرها الصليبيون يسيطرون على الأراضي الممتدة من تخوم ماردين إلى الفرات حيث حصون سروج والبيرة وسن بن عطير وجملين والموزر، فضلا عن مدينتي الرها وتل باشر التي اتخذت مركزا للحكم في الفترة الأخيرة. انظر: علية عبد السميع الجنزوري، المرجع السابق، ص ٣٠٤.

أو أخته زوجة للأمراء الصليبيين الثلاثة الأول<sup>(١)</sup>. ومن ثم لم يدرك وليم أوف نيوبره وجود حاكمين للرها يحملان اسم بلدوين في حين أدرك وجود أكثر من حاكم للرها يحمل اسم جوسيلين الذين ينتمون إلى أسرة كورتناي بيد أنه خلط بين شخص جوسلين الأول وابنه جوسلين الثاني.

على هذا أيضاً تكون لدى الباحث انطباع بأن المؤرخ بدا متحاملا على الأرمن في إمارة الرها. وما يلبث أن يتأكد لنا هذا الانطباع مرة أخرى عند حديثه عن دورهم في سقوط المدينة في يد عماد الدين زنكي للمرة الأولى في عام ١١٤٤ م/ ٣٢٩ هـ. وقد يكون تكرر ذلك

مرة أخرى أثناء أحداث سقوطها للمرة الثانية فى يد ابنه نورالدين محمود عام ١١٤٦م/٥٤١هـ إذ اتهم أحد حكامهم بالخيانة والغدر لصالح الأتراك. أما عما صدر من كلمات قاسية من المؤرخ فى حق المسلمين فإنه يعكس النزعة الصليبية عنده ويتفق مع روح العصر، فى حين كان تصويرهم بالعنف الشديد أثناء استرداد الرها، أمر يتجه إلى الصحة، إذ أكدته المصادر الإسلامية أيضاً<sup>(٢)</sup> وكان رد فعل منهم على سلسلة من خيانات الأهالى. كذلك لم تشر الدراسات المتخصصة فى تاريخ الرها عصر الحروب الصليبية إلى وجود مؤامرة طرفاها الأرمن والمسلمون ضد الصليبيين وقت سقوطها فى يد المسلمين.

(١) تولى حكم الرها بعد بلدوين الأول أمير فرنجى آخر هو بلدوين أوف بوج الذى حاز محبة الأرمن وتقديرهم حيث تقرب إليهم بالزواج من ابنة الأمير الأرمينى جبريل. وقد أعانه هذا الزواج كثيرا على توطيد نفوذه، أما عن الحاكم الثالث للرها جوسيلين الأول فقد جاء فى وصف وليم الصورى له "كان ذا خبرة واسعة بالحياة والناس، حذرا فى كل ما يفعله، يظهر تعقلا شديدا فى معالجة الأمور، وترتيب وتنظيم شغونه الخاصة". وكان زواجه من ابنة ليون التى أنجب منها جوسيلين الثانى الذى حكم الإمارة من ١١٣١ إلى ١١٥٠م. بغرض توطيد علاقته بالأرمن. وكان قد أبدى تمهونا أدى إلى ضياع الإمارة؛ نظرا لاستسلامه كلية لميوله المنحرفة وعدم الاكتراث بتقوية جيشه وتحصين القلاع أمام التهديدات الإسلامية. كما خلد إلى الراحة بعيداً فى تل باشر عن الأخطار المحيطة بمقر الإمارة فى الرها. انظر:

William of Tyre, op.cit., Vol.I, p.450, Vol.II, pp.52-53, 140-142.

راجع أيضا الدراستين المتخصصةين فى تاريخ أسرة كورتناى:

Nicholson, R.L., Joscelyn I, Prince of Edessa, The University of Illinois, 1954, pp. 52-61, 88-91; Joscelyn III and the Foll of the Crusader States (1134-1199) illinois, 1973, pp. 4-21.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٨٢.

وفى المرحلة التالية يستأنف المؤرخ وليم أوف نيوبره الحديث عن الحملة الصليبية الثانية التى كان قد أشار إليها فى عُجالة فى صدر الفصل الثامن عشر من الكتاب الأول فذكر أن جيوشها خرجت أثناء فترة حكم الملك ستيفن أوف بلوا بعد مرور ١١٤٧ عام على ولادة السيدة العذراء<sup>(١)</sup> حيث قال: "اجتمع حشدٌ لا يحصى من كل الدول والأمم المسيحية عندما سمعوا بما يفيد بصلب السيد المسيح من خلال بعض الصور لينضموا إلى رحلة حج إلى بيت المقدس، ويرجع سبب تلك الحملة التى لقيت اهتمام من الجميع<sup>(٢)</sup> إلى ما ترتب على سقوط الرها متتالاً ذلك فى الفصل ذاته حيث قال: [نتج عن الفجعة التى أصابت الجميع عندما ترمى إلى المسامع ما ورد فى تقرير عن كارثة سقوط الرها بأن نهض أكثر الأمراء المسيحيين فى أوروبا قدراً وهما كنراد الثالث [Conrad III] إمبراطور إيطاليا

وألمانيا<sup>(٣)</sup>، [١١٣٨-١١٥٢م]، ولويس السابع [Louis VII] ملك فرنسا [١١٣٧-١١٨٠م] وأصبحت على أهبة الاستعداد لحمل راية السيد المسيح، بينما التحق بهما عديداً من النبلاء والأشراف، وأعداداً لا تحصى من الناس من شتى الأرجاء المسيحية في أوروبا "ولعله ذلك التقرير الذى حمله هيو أسقف جبلة Hugh Bishop of Jabala وخرج به من القدس فى عام ١١٤٥م/٥٤٠هـ إلى البابا يوجينوس الثالث Eugenius III (١١٤٥-١١٥٣م/٥٤٠-٥٤٨هـ) فى روما، وربما يكون أيضاً ذلك التقرير الذى رفعه الأسقف إلى كل من ملكى ألمانيا وفرنسا فى سفارته إليهما، الأمر الذى ترك صداه بين القادة العلمانيين منهم والدينيين، فوجهت الدعوة إليهم للاجتماع فى مدينة فيزلاى Vezely ١١٤٦م/٥٤١هـ حيث اتفقوا على توجيه حملة إلى الشرق.<sup>(٤)</sup>

(١) لعل المؤرخ وليم يقصد التأريخ بمولد السيد المسيح وما ذكره يتفق مع ما أورده أحد المؤرخين المعاصرين الآخرين فى يونيو ١١٤٧م/محرم ٥٤٢هـ. انظر :

William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 18: 1.

Odo of Deuil, De Profectione Ludovici VII in Orientem, edited with an English translation by Viraginia Gingerick Berry, New York, 1948, p. 11.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 18: 2.

(3) William of Newburgh, op.cit., pp. 23-28.

استخدم المؤرخ وليم أوف نيوبره لفظة الإمبراطور لصيقة باسم كتراد الثالث؛ نظراً لأنه أضفى على نفسه هذا اللقب، وذلك خاصة فى مراسلاته مع الأباطرة البيزنطيين حتى يكون ندا لهم، الأمر الذى يفسر شيوع اتخاذ اللقب. والواقع أن كتراد مات فى ١٥ فبراير ١١٥٢م. وهو فى طريقه إلى روما للحصول على التاج الإمبراطورى. راجع: محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول (١١٤٣-١١٨٠م)، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص ١٣٧، هـ. ٣.

(4) Runciman, S., A History of the Crusades, 3 Vols., Cambridge, 1952, Vol.II, pp.247-248.

وفى الواقع لم تمدنا المدونة بتفاصيل الدورالفعال الذى لعبته البابوية بعامة والقديس

برنارد رئيس دير كليرفو St. Bernard of Clairvaux (١٠٩١-١١٥٣م/٤٨٤-٥٤٨هـ) بخاصة فى الدعوة للحملة الصليبية الثانية<sup>(١)</sup>، فى حين اهتمت بإبراز دور كل من: كتراد الثالث ولويس السابع ملكى ألمانيا وفرنسا فيها، الذين حملوا راية السيد المسيح، وذلك فى الفصل العشرين من الكتاب الأول<sup>(٢)</sup>. وهذا يترك انطباعاً بأن المؤرخ كان يبدى اهتماماً بذكر ما يتعلق بجهود الحكام والأمراء العلمانيين بدرجة أكبر من اهتمامه بدور رجال الدين؛ ولحسن الحظ وردت عند المؤرخ بعض التفاصيل الخاصة باستعدادات هذين الملكين للزحف فى الحملة الصليبية الثانية فعدد الأمم التى انخرطت فيها، "فكان منهم تحت قيادة الإمبراطور: الإيطاليون والألمان، وتحت قيادة الملك الفرنسى: الفلاندرز والفلمنك

والنورمنديون والفرنجة والبريتونيون والإنجليز والبورجاندليون والبروفنسالليون والأكويطانيون، سواء أكانوا من رجال الدين أم العلمانيين، ريفيين أم حضر، ومنهم الفارس ومنهم الراجل. وقد بلغت حماسة الملوك وكبار الأمراء أن جابوا البلاد على أقدامهم لإتمام الاستعدادات والتجهيزات. وبعد أن نجحوا فى تجميع الحشود الضخمة قاموا بتقسيمها إلى جيشين رئيسيين، بحيث تولى كتراد قيادة الجيش الأول، بينما تولى لويس قيادة الجيش الثانى. وما لبثت أن أخذت القوات فى التحرك صوب الشرق<sup>(٣)</sup>.

وفى إطار الاستعدادات أيضا لتوجه الحملة إلى الشرق وفيما يتعلق بالشق الفرنسى منها، يذكر مؤرخنا فى الفصل الحادى والثلاثين من الكتاب الأول<sup>(٤)</sup>. أن الملك لويس السابع قرر أن يصطحب معه زوجه الملكة إليانور Eleanor الابنة الوحيدة لدوق مقاطعة أكويتين Aquitaine. [للأمير وليم العاشر William X] وبفضل هذا الزواج انضمت الإقطاعية الواسعة إلى التاج الفرنسى . وحذا كثير من المشتركين فى الحملة من النبلاء

(1) Bernard of Clairvaux, Some Letters of Saint Bernard abbot of Clairvaux, from the translation of the late Tales, Vicar of Satisfield, Selected by Francis Aidan Gasquet, D.D London, 1994, p. 49, No. XII, p. 121, No. XXIX.

(٢) يقع هذا الموضوع تحت عنوان: "كيف قاد الإمبراطور كتراد والملك لويس قواهما إلى الشرق". انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 20: 1-3.

(3) Ibid, bk.1, Ch. 20: 1; cf. also Roger of Wendover, Flowers of History, 2 Vols., trans. From the Latin by Gilles, J.A., London, 1849, Vol. I, p.449.

(٤) ويقع تحت عنوان " عن طلاق ملك فرنسا من زوجه وزواجها من ملك إنجلترا المقبل ". انظر :

William of Newburgh, op. cit., bk.1, Ch. 31: 2.

حذو ملكهم، فاصطحبوا زوجاتهم معهم اللاتى أخذن معهن وصيفاتهن، مما تسبب فى ضخامة عدد النساء فى المعسكرات المسيحية، التى يجب أن تكون عفيفة طاهرة، ولكنها صارت مجالاً للفضائح التى وُصم بها الجيش<sup>(١)</sup>. ولم يقدم المؤرخ تفاصيل أكثر من ذلك عن التدابير الخاصة بالاستعداد للحملة، ولكنه وضع بذلك يده على جانب من المشاكل التى صحبتها.

وعن الشق الأول من الحملة فلم يقدر المؤرخ وليم أوف نيوبره عدد الجيش الألمانى بينما قدره المؤرخ روجر أوف فندوفر بحوالى سبعين ألف فارس، فضلاً عن المشاة<sup>(٢)</sup>. وعن تحركاته فيذكر مؤرخنا النيوبرهوى : " عندما دخل الجيش هنغاريا [المجر] وبعد العمل على

استرضاء ملك هذه الدولة [جيزا<sup>(٣)</sup> Gyza] ليقدم لهم ما يلزمهم من مؤن إضافية، ثم عبروا نهر الدانوب Danube و تقدموا مخترفين إقليم تراقية Thrace. بعد أن اتخذوا الاستعدادات الضرورية لمواصلة المسيرة حتى بلغوا فى أمان تخوم القسطنطينية، وهناك أقاموا خيامهم دون المدينة، حيث استراحوا لعدة أيام عقدوا خلالها اتفاقية من بنود عديدة مع إمبراطور هذه المدينة [الإمبراطور البيزنطى مانويل الأول Manuel I (١١٤٣-١١٨٠ م)]، ثم عبروا اللسان البحرى الضيق الذى يدعى مضيق القديس جورج ST. George<sup>(٤)</sup> "المعروف حالياً باسم مضيق الدردنيل وفى موضع آخر يوضح المؤرخ وليم" أن البلاد المجرية التى تم المرور بها تعرضت لاعتداءات من أكثرية الجيش حيث أبدوا ألواناً من الغطرسة والشهوانية والفجور حيالهم، فى حين امتثل الأقلية لما تم عقده من اتفاق<sup>(٥)</sup>. وإذا ما كان المؤرخ الإنجليزي قد أقر بأن هناك اتفاقين قد أبرما بين كتراد وملك المجر عند المرور بأرضه لاسترضائه وبينه وبين الإمبراطور البيزنطى بعد وصول الألمان عند أسوار القسطنطينية، فإن المؤرخ البيزنطى كيناموس يشير إلى أن ذلك قد تم أثناء مقابلة سفارة بيزنطية للملك الألمانى عند عبوره بلاد المجر. وفيه بذل

(1) Ibid, bk.1, Ch. 31: 1.

(2) Roger of Wendover, op.cit, Vol.I, p.449.

(٣) هكذا ورد عند المؤرخ البيزنطى كيناموس بهذا الاسم. انظر:

Kinnamos, John, Deed of John and Manuel Comnenus, trans. by Charles M. Brand, New York, 1976, pp.67-68.

(4) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 20: 1.

(5) Ibid, bk.1, Ch. 20: 1-2.

يمينا للسفراء بعدم إنزال أضرار بأراضى بيزنطة خلال اجتيازه لها مقابل الحصول على ما يلزمه من مساعدات<sup>(١)</sup>. ولذا فربما يكون هناك اتفاق مسبق ومنفصل عقد مع المجرىين يختلف عن تلك المعاهدة التى أبرمت بين العاهلين الألمانى والبيزنطى تعلقت بالأراضى البيزنطية ذاتها.

وفى المرحلة التالية كان يفترض أن يتناول المؤرخ مسيرة الجيش الفرنسى الذى لم يقدر عدده أيضاً، بينما قدره المؤرخ روجر فندوفر بأنه يمثل عدد الجيش الألمانى أى سبعين ألف فارس عدا المشاة. إلا أنه كان يفوقه تدريباً وتسليحاً<sup>(٢)</sup>. بيد أن مؤرخنا أخذ يتحدث عن الجيشين معاً مستخدماً لفظة "المسيحيين" حيث قال عنهم: "وعند وصولهم إلى آسيا

الصغرى التى كانت مقسمة بين إمبراطور القسطنطينية [مانويل] وسُلطان قونيه Iconium، [وكان آنذاك هو السلطان مسعود الأول ابن قلع أرسلان (١١١٦-١١٥٦م/ ٥١٠-٥٥١هـ)]. واجهوا الغدر من الإمبراطور اليونانى، لأن قوما كانوا قد أثاروا حنقه بتجاوزاتٍ معينة ارتكبوها، بل ألبوا عليهم الله بغضبه جراء ما اقترفته أيديهم فى صلفٍ وغرورٍ ورغبة فى الاستعباد... "ثم ساق المؤرخ شواهد من العهد القديم على أن الله لا ينصر قوماً بينهم عاص<sup>(٣)</sup>. ورأى المؤرخ أن هذا قد انطبق على حالة الجيش المسيحى فى ميدان المعركة بأسيا الصغرى. وفى ذلك يستكمل حديثه قائلاً: "لقد ترتب على جرائمهم تلك ما ترك أثره السيئ ليس فقط على حياتهم اليومية بصفقتهم مسيحيين، إنما كذلك بوصفهم محاربين، ولذا لم يكن مستغرباً ألا تتبسم العناية الإلهية لهم فقد كانوا بحق فاسدين ملوثين...". وتهكم المؤرخ عليهم قائلاً: "أن معسكراتهم التى يطلق عليها [باللغة اللاتينية] لفظة كاسترا Castra فى الحقيقة ما هى إلا كاسترات Castrate، أى التى تم خصيها بتجريدتها مما شابها من أقدار وندس فلقد كانت معسكراتنا تعج بعدم العفة بسبب شهوانية الكثير منهم البيئة وفسقهم الفاضح، وفى الوقت الذى تباهاوا فيه واغترروا بكثرتهم وحسن تجهيزاتهم، وكانت ثقنتهم فى رحمة الله وقدرته قليلة جداً برغم تظاهرهم بالحماسة فى الحرب من أجل قضيته واثبتوا حقيقة العبارة الإنجيلية: (ولكنه يعطى نعمة أعظم).

(1) Kinnamos, J., op.cit., pp.68-69.

(2) Roger of Wendover, op.cit., Vol.I, p.449

(٣) راجع نص العبارة التوراتية: "قم قدس الشعب وقل تقدسوا للغد. لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل فى وسطك حرام يا إسرائيل فلا تتمكن للثبوت أمام أعدائك حتى تنزعوا الحرام من وسطكم"، العهد القديم: سفر يشوع ٧: ١٣.

لذلك يقول يقاوم الله المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهن نعمة) [رسالة يعقوب ٤: ٦]، فضلاً عن ذلك كله فبالرغم أنهم كانوا فى تلك الآونة يقيمون فى أراضى خاضعة لحاكم مسيحي، كانوا قد عقدوا معه تحالفاً، وبالرغم من أنهم حصلوا على الإمدادات من قيادات جيشه بأوامر منه، إلا أن ذلك كله لم يثنهم عن نهب بلاده<sup>(١)</sup>.

هذا السخط الواضح فى العبارات التى استخدمها صاحب المدونة عما اقترفته القوات الألمانية والفرنسية، خاصة أشكال السلب والنهب ضد إخوانهم فى الدين، لم ينفرد به هذا المؤرخ. إذ نجد على سبيل المثال من نظائره المؤرخين المسيحيين الغربيين أودو أوف دييل Odo of Deuil الذى سبقه فى ذلك. ووصف تصرفاتهم بعمل بريرى أقدمت عليه قوات

ألمانية مخمورة أما القوات الفرنسية فلم تكن أقل فجورا وعنفا حينما سطوا على أموال الصرافين وممتلكات المواطنين البيزنطيين<sup>(٢)</sup>.

ثم سرد المؤرخ وليم وقائع المصير التعس الذي واجه الجيش المسيحي جراء ما أقدم عليه من نهب وسلب في بلاد الإمبراطورية البيزنطية قائلاً: " ونتيجةً لذلك أغار عليهم الإمبراطور [مانويل] الغاضب؛ فمن ناحية ضرب عليهم الحصار حتى استشرت المجاعة فيما بينهم، ومن ناحية أخرى أعمل فيهم السيف تقتيلاً، فعلى الرغم من أنه مسيحي إلا أنه لم يتردد في سفك دماء مسيحية. وأخيراً ونتيجةً لتوقف جميع الإمدادات حالت كمائن العدو أيضاً دون التماس الجيش سبيله للحصول على المؤن مما عرض أفراده للإبادة إما بسبب الجوع، وإما بسقوطهم صيداً سائغاً في شرك العدو، حتى لونا سيوف الأتراك بدمائهم. ومن نجا منهم فقد أثر أن يبذل دمه المسيحي بأسوأ وأحقر عبودية بأخذه أسيراً. ومن ثم تعرضوا بسبب غطرستهم وذنسهم لغضب الله الجارف أكثر مما تعرضوا إليه بفعل سيوف أعدائهم التي أخذت تحصدهم. وما لبث أن وصل الجزء الأعظم من الجيشين الكبيرين [لعله يقصد غالبية الشق الفرنسي] مع البقية الباقية [من الجيش الألماني] الذي وقع ضحية المشاكل والمعارك إلى بيت المقدس بعد أن نجا الأميران الكبيران بالكاد من الفناء، وهناك لم يستطعا إنجاز أى عمل بطولى يذكر، فعادا إلى بلادهما بلا مجدٍ يخلد ذكراهما<sup>(٣)</sup>."

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 20: 2.

(2) Odo of Deuil, op.cit., pp. 46-47, 75.

(3) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 20: 3.

بذلك وفي حسرة بالغة أجمل المؤرخ وليم أسباب هزيمة الحملة الصليبية الثانية في آسيا الصغرى، فأكد على أن مسيحي هذه الحملة ذاقوا كسابقيهم مرارة غدر الإمبراطور اليوناني، تلك الخيانة التي تردد عنها الحديث عند عدد من المؤرخين المعاصرين. وبهنا في هذا الموضوع ما ورد عند وليم الصوري عنها، حيث روى أن المرشدين البيزنطيين هم الذين اختاروا طريق الحملة بحيث غدت تحت سيطرة الأتراك. وحينما كان يسألهم كتراد عن أمور مهمة لتحركات الجيش كانوا يضللونه حتى أنهم هربوا ليلاً. وبدون المرشدين وجد كتراد جيشه في ضياع. كما شحت الإمدادات فأكلوا الدواب. وما لبث أن انقض عليهم السلاجقة من كل جانب<sup>(١)</sup>. بيد أن مؤرخنا كان صارماً حين ألقى اللوم بشدة على اللاتين واتهمهم بصفات الدنس والطيش وأنهم استحقوا عقاب الله نتيجة مبادرتهم بالاعتداء على الممتلكات

البيزنطية فحق عليهم أيضاً أن يقابلوا بجم غضب الإمبراطور، أما الملكان الألماني والفرنسي اللذان أشار إليهما المؤرخ مؤخراً بالأميرين الكبيرين فربما أراد التهكم عليهما أو الحط من قدرهما خاصة وأن ذلك الوصف جاء أثناء الإشارة إلى فرارهما مع فلول جيشهما المدمر الذى أرجع المؤرخ نجدتهم من المذبحة لما أظهره سلفاً من نخوة ونبيل وتواضع عند اجتيازهم لبلاد المجر فاستحقت تلك الفلول بذلك أن يظلمهم الله برحمته<sup>(٢)</sup>. وفى الواقع فإن هذا النمط من الكتابة التاريخية لا تخلو من الصبغة الدينية وهى تعد أمراً شائعاً فى هذا العصر ولا تبخس للمؤرخ ما قدمه من عمل. ومن ثم يتأكد لنا أن مؤرخنا وليم أوف نيوبره نجح فى أن يضع نفسه واحداً من مؤرخى أحداث الحملة الصليبية الثانية ولو لبعضٍ من جوانبها.

هذه النهاية التعسة بالنسبة للصليبيين تركت آثارها على المؤرخين المعاصرين الآخرين أيضاً. فاهتم جانب منهم بتسجيل بقية أحداثها المأساوية، والتي أغفلها وليم أوف نيوبره. إذ تجدر الإشارة إلى أن وليم الصورى قد أولى المرحلة الأخيرة اهتماماً بداية من وصول الحملة إلى مملكة بيت المقدس، وانطلاقها نحو دمشق كى تكون هدفاً لها، وتفاصيل القتال والحصار من حولها، ثم إقبالها وعودتها مهزومة حتى رحيل لويس السابع فى العام التالى ١١٤٩م/٥٤٤هـ<sup>(٣)</sup>. كذلك فمن المهم تتبع موقف المؤرخ روجر أوف هوفدن من تسجيل وقائع الحملة؛ نظراً لأن الظروف التى تحيط به لا تختلف كثيراً

(1) William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp.168-172.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 20: 2.

(3) William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 163-184.

عما أحاطت بمؤرخنا وليم أوف نيوبره. فقد وردت أحداث الحملة عند روجر فى أسطرٍ معدودة، ولم يأت بأية تفاصيل كذلك التى عند وليم فى كل مراحل الحملة، اللهم تلك الإشارة المتعلقة بفشلها أمام أسوار دمشق<sup>(١)</sup>، مما يبرز مؤرخنا ومدونته بصفة عامة متميزة فى تناول أحداث تلك الحملة خاصة فى مراحلها الأولى.

وفى الواقع لم يفت المؤرخ وليم أوف نيوبره فى موضع آخر وهو الفصل الحادى والعشرون الكتاب الأول<sup>(٢)</sup> أن يذكر جانباً من الأحداث التى تلت هزيمة الحملة الصليبية الثانية وعودتها وكانت قد نجمت عما وقع من خلافات بين الأمراء الصليبيين وداخل المعسكر المسيحى أثناء تواجدهم فى الشرق؛ وفى حالة نادرة التكرار أفصح المؤرخ عن المصدر الذى نقل عنه، فكان أحد القساوسة العائدين من أنطاكية وقت أن كان المؤرخ فى

ريغان شبابه الذي أقر بأنه نقل عنه الكثير مما كان في جعبته من أخبار عن الشرق اللاتيني، مؤكداً أن القس تحرى الدقة فيما روى إذ كان شاهداً للعيان لما رآه من وقائع، وذلك من خلال موقعه في خدمة أمير أنطاكية ريموند أوف بواتيه Rymond de Poater (١١٣٦-١١٤٩م/٥٣٠-٥٤٤هـ)، ومما أورده المؤرخ: "ترتب على نجاح المسلمين في إرغام المسيحيين على التقهقر [من أمام أسوار دمشق] إلى ثكناتهم بصورة مخزية، وكذلك بعدما غنموا المغنم الكثيرة، وأوقعوا عدداً كبيراً من المسيحيين بين قتيل وجريح بزغ نجمهم وحق لهم أن يتباهوا بما أحرزوه من نصر، لذا فقد كانوا واثقين للغاية من قوتهم حتى أصبح في مقدورهم لسنواتٍ طوال اقتحام الإمارات المسيحية ضمن خطة للقضاء عليها في الشرق قضاءً مبرماً، وللوقوف على كيفية ذلك نتناول بدايةً حادثة مقتل ريموند الذي يعد أكثر أمراء أنطاكية إخلاصاً للمسيحية، وكان ذلك بمثابة الفأل العظيم بالنسبة للمسلمين؛ فلقد كان هذا الأمير بحق أشجع من دافع عن القضية الصليبية في الشرق، حيث تمكن من أن يكتسب لنفسه شهرة الأوائل من الميكابيين<sup>(٣)</sup> Maccabaeus بما أحرزه من

(1) Roger of Hovden, op.cit., Vol.I.p.250.

(٢) الموضوع تحت عنوان "عن ريموند أمير أنطاكية والاستيلاء على عسقلان". انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 21: 1-2.

(٣) المكابيون: هم أسرة عبرانية كان أولهم متاثياس وجاء من بعده ابنه يهوذا الذي اشتهر بالمكابى، وما لبث أن شمل هذا المسمى جميع أفراد الأسرة التي شكلت حزباً مقاوماً للسلوقيين الوثنيين وأبنت ألوانا من البطولات في محاربتهم في فلسطين، وذلك في الفترة من ١٦٨ إلى ١٠٤ ق.م. فحصلوا على الاستقلال. وظل المكابيون يمثلون حزب اليهود في التعامل مع كل من السلوقيين ومن بعدهم الرومان إبان حكم هيرودس الكبير (٣٧-٤ ق.م.). انظر: بطرس عبد الملك وآخرون: قاموس الكتاب المقدس، (د-ت)، مادة: مكابيون.

أعمالٍ مجيدة... فقد كان إقدامه وشجاعته في القتال سبباً في إلقاء الرعب بين المسلمين فمتى كانوا يدفعون إليه بجيشٍ كانوا مضطرين إلى وضع مائه فارس ضد سيفه ومثل هذا العدد ضد رمحه. ومن آيات ذلك أنه حينما تشجع المسلمون بانتصاراتهم وغدت أنطاكية تئن من وطأة تكرار هجومهم على أراضيها كان هو يخرج لمهاجماتهم برهطٍ من الرجال دونما الانتظار لجمع قوةٍ كافية، وبعد عدة بطولاتٍ مجيدة سقط صريعاً في ساحة القتال لتفوق أعداد أعدائه ضده شأنه شأن أبطال الميكابيين في العهود المنصرمة وحينئذ أخذ المسلمون يدبرون الأمر من أجل اقتحام مدينة أنطاكية<sup>(١)</sup>.

هكذا اقتصر حديث مؤرخنا عن ريموند أوف بواتيه على تقييمه فارساً وحاكماً دون التعرض للتفاصيل الخاصة بخصائصه الجسمانية وظروف توليه الإمارة، مما أبرز قيمة

المؤرخ وليم الصوري في مجال اهتمامه بتسجيل هذه التفاصيل. ومما بينه أن ريموند هو الابن الأصغر لوليم التاسع دوق أكويتين والمقيم في بلاط هنري الأول ملك إنجلترا. وقد حضر سرا إلى أنطاكية، وتهيأت أمامه الظروف كي يكون حاكما لها في أبريل ١١٣٦م/ رجب ٥٣٠هـ<sup>(١)</sup>. ويبدو أن إقامة الأمير ريموند أوف بواتيه في بلاط الملك الإنجليزي هنري الأول قد تركت أثرا ما عند مؤرخنا وليم أوف نيويره بصفته مهتما بالتاريخ الإنجليزي، فأولاه بعض الاهتمام. وقد أقرت المصادر الإسلامية والصليبية الأخرى بما أورده المؤرخ الإنجليزي من مادة، بيد أنها أوضحت تاريخ الانتصار على ريموند وقتله في ٢٩ يونيو ١١٤٩م/ ٢١ صفر ٥٥٤هـ. عند أنب شرقي نهر العاصي<sup>(٢)</sup>.

ومرة أخرى وفي موضع تال ذكر المؤرخ جانباً آخراً من نتائج الحملة الصليبية الثانية غير المباشرة، وكانت قد نجمت أيضاً عن الخلافات بين الصليبيين في الشام حيث جاء في روايته: "عندما عاد الملك لويس إلى وطنه مع زوجته إيلانور موصوماً بعار الفشل في حملته أخذت عواطفهما السابقة في التبدد تدريجياً، ونشبت بينهما أسباب الخلاف، حيث أهان الملك بسلوكه الملكة إهانة شديدة، بينما أكدت هي أنها تزوجت راهباً

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 21: 1.

(2) William of Tyre, op.cit., Vol.II, pp.59-60, 78-79.

(٣) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٣٠٤-٣٠٥.

William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp.196-198.

لا ملكا. ومما قيل أيضا أنها أثناء ارتباطها بملك فرنسا كانت تطمع في الزواج من [هنري] دوق نورمندی لأنه كان أكثر مراعاة لمشاعرها<sup>(١)</sup>. ونتيجة لذلك ألقيناها راغبة في الطلاق، فطالبت به مما أدى إلى تفاقم النزاع، واشتدت إصرارا على طلبها حسبما قيل، ولم يبد الملك معارضة لذلك، وأقدم على فسخ رابطة الزواج فيما بينهما بحكم القواعد الكنسية استنادا إلى شهادة رجال الدين بوجود قرابة بينهما، وذلك في عام ١١٥١م [٥٤٦هـ] وترتب على ذلك أن انسلخت مقاطعة أكويتين عن فرنسا<sup>(٢)</sup>. فضلا عن إقطاعية بواتوه<sup>(٣)</sup>. ورغم وضوح الرؤية عند مؤرخنا بشأن هذه الأحداث إلا أن هناك مزيدا من الإيضاحات نجدها عند غيره إذ ذكر وليم الصوري ما أغفله وليم أوف نيويره عن علاقة القرابة بين الملكة وخالها ريموند أمير أنطاكية، إذ كانت الابنة الكبرى من أخته زوجة وليم العاشر. كذلك أوضح رغبة الملكة في تكريس الحملة لتوسيع حدود إمارة أنطاكية على حساب جيرانها المسلمين، ذلك الأمر الذي

حمل هذا المؤرخ على إبداء سخطه عليها باتهامها بالرعونة والطيش. كما أشار إلى وجود ما يشين سلوكها سواء أثناء إقامتها في أنطاكية مع خالها أم حتى بعد العودة إلى فرنسا، حيث نهجت نهجا لا يليق أبدا بمكانتها الملكية؛ فلم ترع التزاماتها الزوجية ولم تخلص لزوجها<sup>(٤)</sup>. وهكذا أكملت روايته ما كان قد ذكره مؤرخنا وأكدت على المصادقية والقيمة التي أنتت في مدونته التاريخية.

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 31: 1.

والأمير هنرى هو ملك إنجلترا الملقب بهنرى الثانى Henry II (١١٥٤-١١٨٩ م./٥٤٩-٥٨٥ هـ). وقد حاز على ملكه من خلال وراثة أمه ماتيلدا ابنة الملك هنرى الأول وعلى دوقية نورمانديا من أبيه عام ١١٤٩ م/٥٤٤ هـ، إضافة إلى مقاطعة أنجو في ١١٥٠ م/٥٤٥ هـ. وبزواجه من إليانور ووفاة أخيه حكم أكثر من نصف فرنسا. وحينما توفى ستيفن أوف بلو آل إلى هنرى حكم إنجلترا. راجع على سبيل المثال:

Roger of Hovden, Vol. I, pp. 251-252, 254.

(2) William of Newburgh, Loc.cit.

ويضيف وليم أوف نيوبوره توضيحا لحدود إقطاعية أكويتين أنها امتدت من إحدى إقطاعيى بريتانى Brittany وأنجو Anjou إلى جبال البرانس. وقد آلت إلى التاج الإنجليزي بحكم زواج إليانور من الملك هنرى الثانى الذى كان أمير نورماندى فى ذلك الوقت، الأمر الذى جعل الملك لويس يتميز غيظا. وإضافة إلى هذه المعلومات قدم المؤرخ مزيدا من التفاصيل عما ترتب من نتائج نتيجة طلاق إليانور ثم زواجها، موضحا بذلك خلفية الأحداث التى وقعت فى أوروبا مرحلة ما بعد الحملة الصليبية الثانية.

(3) Roger of Hovden, op. cit., Vol. I, p. 254.

(4) William of Tyre, op. cit., Vol, II, pp. 178-180.

وبعد عرض المادة التاريخية عن الحملة الصليبية الثانية فى هذه الفصول من المدونة يتبين أن صاحبها نجح فى أن يضع يديه على السبب الحقيقى لخروج الحملة الصليبية الثانية، ألا وهو سقوط الرها فى يد المسلمين، ومهد لذلك بتقديم رواية تاريخية عن اعتناق الإقليم للمسيحية والتمسك بها حتى بعد الفتح الإسلامى، وتحوله إلى إمارة حكمها اللاتين. ولكن عرض الأحداث كان يشوبه بعض الاضطراب الذى ويلتمس فيه العذر للمؤرخ؛ نظرا لابتعاده مكانا وزمانا عن الوقائع التاريخية فى هذه المرحلة. وتدخل الباحث بدوره بتوظيف المادة كل فى مكانها بدون المساس بها إلا فى حدود توزيعها. أما حينما تعرض لخروج الحملة وتحركاتها وصولا إلى فشلها فقد نحت المدونة جانبا معظم التفاصيل الخاصة بالدعوة للحملة وأسماء قادتها المدنيين والعلمانيين وتفاصيل دور كل من الملكين كرناد ولويس والإمبراطور مانويل فيها. كما وقع المؤرخ فى لبس بسبب عدم الفصل فى الأحداث بين ما

واجه الجيشين الألماني والفرنسي فى آسيا الصغرى. فجاءت أحكامه عامة مطلقه فى هذه الجزئية، فى حين وقع أسيرا للأفكار التى سادت الغرب الأوروبى آنذاك حول خيانة بيزنطة للقضية الصليبية. وبدا متميزا فى تحميل الجيش الصليبي المسئولية كاملة فى الهزيمة وأرجع ذلك لسوء سلوكهم، وأخيرا يبدو أن فشل الحملة أمام دمشق كان كفيلا بجعل المؤرخ يصمت عن الكتابة عنها إبان وصولها إلى الأراضى المقدسة، ويكتفى بالإشارة فقط إلى فشلها. من ناحية أخرى نجحت المدونة فى تسليط الضوء على بعض نتائج هزيمة الحملة غير المباشرة مثل تردى الوضع العسكرى فى إمارة أنطاكية جراء مقتل أميرها ريموند وتزايد ضغوط المسلمين العسكرى عليها وفى هذا الصدد أيضا كان تقييمه للأمر لا يختلف عن تقييم المؤرخ وليم الصورى مؤرخ الشرق اللاتينى العتيد فيما يخص الحكام. ومن ذلك أن كليهما اتفقا على ما يعيب سلوكيات الملكة إليانور. وهذا نلمسه عند مؤرخنا فيما ذكره عن قصصها الغرامية فى أوروبا، بينما غطى الآخر تصرفاتها المعيبة فى أنطاكية. وهى أمور أوغرت صدر الملك لويس، ومن ثم ألقت بظلالها على الحملة، مما أدى إلى فشلها بالهزيمة.

ويواصل المؤرخ الإنجليزى تأريخه للأحداث حول أنطاكية، ومما يفهم منه أنه بمجرد وصول أخبار مقتل الأمير ريموند وما وقع من هزيمة فى الجيش الصليبي إلى القدس، أسرع الملك بلدوين الثالث (Baldwin III 1143-1162م/538-557هـ) لنجدة المسيحيين هناك. وكان فى رفقة جيشه فرسان طائفة الداوية العسكرى<sup>(1)</sup> Templars. وبالفعل وصل جيش الملك الصليبي فى الوقت المناسب؛ نظرا لأنه لم يكن بالمدينة القائد الذى يمكنه الدفاع عنها. كما أن جيش المسلمين الذى كان آنذاك تحت قيادة نورالدين محمود كان قد وصل خارج المدينة وضرب حولها الحصار. وحينئذ أعلن جميع من بداخل أنطاكية خضوعهم الكامل للملك، وتهيأت الفرصة أمام بلدوين وقواته من اتخاذ التدابير اللازمة من أجل إنقاذ المدينة. ولم يمض وقت كبير حتى تنفس المدافعون الصعداء بأن أجبروا المسلمين على رفع الحصار. ولم يقتصر الأمر على ردهم؛ إذ تمكنت القوات الصليبية من تعقبهم حتى خارج الحدود. وما لبث أن نجح الملك فى لم شعث الإمارة وقواتها، بينما وصلت إليه يوم بعد يوم إمدادات حربية، مما مكنه من مهاجمة أراضى نورالدين فى أعمال حلب. فتبدل الوضع من موقف الدفاع والذود عن أنطاكية إلى الهجوم على المسلمين فى عقر دارهم<sup>(2)</sup>. وهكذا أجمل مؤرخنا فى اقتدار تسجيل أحداث أنطاكية وحلب فى تلك المرحلة بشكل يغلب عليه الإيجاز

رغم غزارة المعلومات التي وفرها له القس الأنطاكي، مما يجعلنا نخرج بحقيقة أن المؤرخ اتخذ من الإيجاز منهجا له في الكتابة.

وفي أواخر الفصل الخاص بإمارة أنطاكية وأميرها ريموند انتقل المؤرخ الإنجليزي إلى الحديث عن جانب آخر من القضية الصليبية في الشرق، وفيها تناول أحداثا تتعلق بمملكة بيت المقدس الصليبية إذ يذكر أنه بعد أحداث أنطاكية المؤرخة بعام ١١٤٩م/٥٤٤هـ. كانت بلدة غزة الزاهرة وهي إحدى بلدات فلسطين القديمة من

(١) اختلف المؤرخون الصليبيون في تحديد تاريخ تأسيسها، وإن كان قد انحصر في الفترة الواقعة بين عامي ١١١٨ و ١١٢٠م. ويرجع الفضل في تأسيس طائفة الداوية إلى فارس شمباني اسمه هيو أوف باينز Hugh Of Payens الذي تمكن من إقناع بلدوين الثاني بالسماح له ورفاقه بالنزول بساحة المعبد (المسجد الأقصى). وقد خضعت الطائفة إلى القواعد الرهبانية المسكونية، وما لبثت أن أضحت مستقلة. وبمرور الوقت أخذ دور فرسان الداوية العسكري في النمو حتى أصبحوا يلعبون دورا مميزا في تاريخ الحركة الصليبية. راجع:

William of Tyre, op.cit., Vol. I, p. 524.

وراجع أيضا: إبراهيم خميس: جماعة الفرسان الداوية وعلاقتهم السياسية بالمسلمين في الشرق الأدنى الإسلامي ١١١٨م/٥١٢هـ - ١١٩٣م/٥٨٩هـ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، ص ٤٧-٤٨.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.1, Ch. 21: 1-2.

ممتلكات طائفة فرسان الداوية، وخلال بضع سنوات قاموا بترميم البلدة وتعميرها، ومن ناحية أخرى قام الملك بلدوين [الثالث] بمهاجمة مدينة عسقلان Ascalon والاستيلاء عليها منجزا بذلك عملا مجيدا، إذ كانت أكثر مدن هذا البلد ازدهارا وأقواها حصانة، الأمر الذي حال دون وقوعها في أيدي الصليبيين قبل ذلك ومن ثم فقد تم إخضاع مجمل الأراضي الفلسطينية إليهم في ظل حكم هذا الملك<sup>(١)</sup>. وكالعادة نجد عند المؤرخين المسلمين المعاصرين فضلا عن المؤرخ وليم الصوري مزيدا من التفاصيل عن الأنشطة الحربية المصاحبة لعملية الحصار ثم إسقاط المدينة في يوم السبت الموافق الثاني والعشرين من أغسطس ١١٥٣م/ التاسع والعشرين من جمادى الأولى ٥٤٨هـ<sup>(٢)</sup>.

وبعد إجماع المؤرخ وليم أوف نيوبره حوالي عشرة أعوام عن الحديث عن الأمور الخاصة بالحروب الصليبية في الشرق بشكل مباشر نجده يظهر اهتماما بأحداث الصراع بين نور الدين محمود والملك عموري الأول (Amalric I) (١١٦٢-١١٧٤م/٥٥٧-٥٦٩هـ) حول

الاستيلاء على مصر، ففي الفصل الثالث والعشرين من الكتاب الثاني<sup>(٣)</sup> تناول أحوالها التي آلت بها إلى التدهور الشديد بشكل أغرى جيرانها بالطمع فيها؛ إذ كانت مواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلة بترجيح كفة من يستولى عليها أو يضمها إلى أى من الطرفين<sup>(٤)</sup>. والواضح أن هذا القطر كان له وزنه الإقليمي البارز عند المؤرخ، فأفاض بعض الشيء في الحديث عن تاريخه القديم، مما ينم عن ثقافة ليست بقليلة، فذكرها باسم بابلون Babelion. وأدرك أنه رغم أن هذا المسمى المعاصر هو ذاته مسمى بلاد بابل العتيقة الكلدانية التي تأسست في العراق بعد الطوفان الذي قضى

(1) Loc.cit.

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٤٩٧؛ ابن الأثير (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م). عز الدين أبو الحسن على بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني الجزري: الكامل في التاريخ، ج ١٢، بيروت ١٩٧٩م، ج ١١، ص ١٨٨-١٨٩؛ سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٧م). أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، المجلد الثامن، ق ١-٢، حيدر أباد، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م، ق ١، ص ٢٠٩.

(٣) يقع هذا الموضوع تحت عنوان "عن حملتي عموري ملك بيت المقدس على مصر"، انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.2, Ch. 23: 2.

(4) Loc.cit.

قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، الكويت، شوال ١٤١٠هـ/ مايو ١٩٩٠م، ص ١٣٩. على مدينة نينوى Nineveh- وكانت لها السيادة على الشرق لما يربو عن ألف عام- إلا أنها تختلف عنها، واعتقد في أن مؤسس بابلون المصرية هو الملك الفارسي قمبيز (٥٥٢-٥٢٥ق.م.) عندما استولى على مصر، وأنه هو الذي أطلق عليها هذا المسمى<sup>(١)</sup>. وفي الواقع فإن هذه المعلومات التاريخية<sup>(٢)</sup> تكشف عن أن مقدمها اكتسب ثقافته من خلال قراءات في الكتب الكلاسيكية واللاهوتية التي ضمنتها مكتبات الأديرة في أوروبا عصر نهضة القرن الثاني عشر الميلادي، السادس الهجري.

تناول المؤرخ وقائع السباق بين عموري الأول ونور الدين محمود مستعرضا إياه من خلال حملتين حربيتين للملك الصليبي غافلا بعض ما يخص تلك الجولات، خاصة ما يتعلق ببواكيرها؛ إذ أورد وليم الصوري معلومات عن حملة سابقة للملك الصليبي وقعت أحداثها في مستهل سبتمبر ١١٦٣م/٥٥٨هـ. وفيها أورد تفصيلا أن الملك جاوز التحوم الشرقية للبلاد وتمكن ضرغام وزير مصر من صد قواته بأن قطع الطريق عليها بكسر السدود

المائية مستغلا طبيعة النيل الجغرافية والفيضان<sup>(٣)</sup>. ورغم فشل الملك هذه المرة في الاستحواذ على مصر إلا أنه تمكن من الوقوف على أجزاء من مصر<sup>(٤)</sup>. ويعتقد أنه نظرا لأن هذه الحملة لم تأت بأية نتائج عملية فقد تجاهلها وليم أوف نيوبره في كتاباته.

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.2, Ch. 23: 1.

(٢) فيما يتعلق بالمعلومات التي ساقها المؤرخ، فمن الثابت إضافة إلى ما ذكر من وجود مدينة بابل في بلاد الرافدين توجد أيضا مدينة بابلون في مصر. وكذلك عرفت مدينة روما في القرن الأول الميلادي باسم بابل لبذخها، واضطهادها للمسيحيين الأوائل. ومن الثابت تاريخيا أن ملك بابل الكلدانية نابوبلاسر قضى على نينوى عاصمة مملكة آشور القوية عام ٦١٢ ق.م. وساعده على ذلك فيضان دجلة. وكانت نينوى قد اعتبرت العالم القديم كله عبدا لها. ولعل أقدم تاريخ يشير إلى قيام المملكة هو ٢٩٠٠ ق.م.، مما يشير إلى أن عمرها يزيد عن الألف عام كما ذكر المؤرخ. أما قميبيز فقد غزا مصر عام ٥٢٥ ق.م. في عهد بسمتك الثالث، الأسرة ٢٦، واعتبر مصر ولاية فارسية. وللمزيد راجع: بطرس عبد الملك وآخرون: المرجع السابق، مواد: بابل، نينوى، آشور؛ الموسوعة المصرية: إشراف: أحمد فخري وآخرين، المجلد الأول، (تاريخ مصر القديمة وآثارها)، القاهرة، ١٩٦٠م، ج ١، مادة: قميبيز.

(3) William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 303-304.

(4) Baldwin W. Marshall, The Latin States under Baldwin III and Amalric 1143-1174, seton, Vol. I, 1<sup>st</sup> ed. 1985, (pp. 523-563), pp. 550-551.

فلقد اكتفى المؤرخ بتناول الأحداث التي وقعت في العام التالي أوائل أغسطس ١١٦٤م / رمضان - شوال ٥٥٩هـ<sup>(١)</sup>. حيث قال: "قاد عموري ملك بيت المقدس حملة صليبية إلى مصر بدعوة من ملكها [ولم يرد اسمه] ... وكان سبب ذلك أن الإمبراطورية المصرية تأثرت بخطر الأتراك، وهم قوم حرب مهرة كانوا تحت حكم الملك نورالدين، إذ بدأ المصريون شديدا الثراء في حين كانوا أقل شأنًا في تجهيزاتهم الحربية ... وتحت رعاية هذا الملك تولى شيركوه أكبر أمرائه والذي كان خبيرا محنكا بأمور الحرب قيادة جيش في سرية تامة، وعبر به أطراف الأراضي الصليبية حيث بادر بغزو الديار المصرية، وعندئذ رأى ملك مصر أنه مما يبعث على الخوف ومن غير صالحة أن تتهاوى أو تستسلم بعض المدن له، وبهذا الشكل المتسرع التمس مساعدة الملك المسيحي بعد أن أدرك عدم قدرة المصريين على إسعافه، واعداد إياه بتوثيق أوامر العلاقة به لاحقا مع دفع جزية سنوية محددة. وعلى الفور قام الملك عموري في همة عالية بعمل الاستعدادات اللازمة في كامل مملكته واستبقى جزء من جيشه للتصدى لهجوم نور الدين في حالة قيامه بأى مغامرة حربية، في حين تولى قيادة

الجزء المتبقى من جيشه الصليبي، ودخل به مصر وهناك تحالفت قواته مع ملك مصر في جيش واحد تمكن من محاصرة شيركوه مع قواته التركية في مدينة محددة [لم يرد اسمها] وتمكنوا في النهاية من طردهم خارج البلاد مهزومين وقد سمح لهم الملك الصليبي باجتياز الأراضي المسيحية في أمن وسلام في طريق العودة إلى وطنهم<sup>(٢)</sup> وقد أتت تفاصيل تلك الحملة عند المؤرخ وليم الصوري وفيها يتضح اسم ملك مصر فكان وزيرها شاور الذي كان قد نجح في قتل ضرغام وتولى الوزارة بدلا منه، وكذلك اسم البلدة التي حوصرت في مصر فكانت بلبيس، وقد اختلف وليم الصوري مع مؤرخنا حينما أشار إلى أن حملة عموري تألفت من جميع جيش المملكة بما فيهم الأمير همفري الثاني Humphrey II صاحب بانياس الذي

(١) راجع: ابن شداد، (ت ٦٣٢هـ-١٢٣٤م). القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم بن عتبة: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق د. جمال الدين الشيال، طبعة أولى القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٢٦-٢٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص ٣٠١؛ أبو شامة، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م). شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن إسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزآن، بيروت (د-ت)، ج ١، ص ١٤٢-١٤٥.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.2, Ch. 23: 2.

ترأس الفرسان بصفة أنه كان يشغل آنذاك وظيفة كندسطلب المملكة<sup>(١)</sup> (أى قائد جيوشها). ومن ثم استغرقت المادة الواردة عند وليم الصوري الخطوط العريضة لرواية وليم أوف نيويور عن أحداث الحملة، ومؤكدة عليها.

تتبع مؤرخنا إلى الشق الآخر من خطة نورالدين الحربية في تلك الآونة، حيث وصفه بالمكر والخداع، ذكرا تواجد الملك عموري على رأس حملته في مصر إبان ذلك فيقول في روايته: "وبينما كانت الأحداث الحربية تحتدم هناك، لم يهدأ لنور الدين بال، بيد أنه تظاهر بعدم اكترائه بما يجرى، ونجح أخيرا في استمالة رجل منا عن طريق الرشوة؛ نظرا لأنه كان حديث عهد بالدخول في المسيحية، وكان هذا الشخص يتولى رئاسة حامية قلعة البلدة التي تسمى حاليا بانياس - بليناس Belinas الواقعة في الأراضي المواجهة لبلاد العدو، وقديما كانت البلدة تعرف باسم قيصرية فيليبى Caesarea Philippi وقام نورالدين ومعه المسلمون بدخول المدينة في سرية بمساعدة هذا الرجل، ولم يعملوا السيف في أهلها، واكتفوا بطرد الصليبيين وأسقف البلدة المسيحي منها. كما قاموا بتحسين وإبدال حامية البلدة بحامية جديدة. وقد أدت هذه الواقعة إلى تعكير صفو انتصارات الملك الصليبي عند عودته من

مصر" وفي مكان آخر من المدونة عبر المؤرخ عن تميز موقع بانياس بقوله: "تعد هذه البلدة مفتاح الأراضى المسيحية فى مواجهة دمشق"<sup>(١)</sup>. وقد شرح الرحالة المسلم ابن جبير الذى مر بتلك المناطق فى عام ١١٨٣م/٥٧٩هـ. وضع الأراضى عند بانياس بقوله: "أنه فى تلك الجهات كان بين الإفرنج والمسلمين حد يعرف بحد المقاسمة؛ فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة"<sup>(٢)</sup>.

فتبيننا لحقيقة الأحداث التى رواها وليم أوف نيوبره عن بليناس نقف على ما ذكره وليم الصورى الذى أورد المزيد عنها فتعرض لموقعها الجغرافى وحدده عند سفح جبل لبنان، وأن مملكة دمشق تتاخمها من الشرق قرب الموضع الذى ينبع منه نهر الأردن.

(1) Ibid, bk.2, Ch. 23: 2-3; William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 205-207, 307.

ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٧-٣٠.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.2, Ch. 23: 2, bk.3, Ch. 11: 3.

(٣) ابن جبير: (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى : رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار فى اتفاقيات الأسفار، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٩٩.

ومن ثم فهى تشكل فى نظره الحد الشمالى لأرض بنى إسرائيل، وتعرض للمسمى القديم وسبب تسميتها قيصرية فيليبى وذكر أن اللاتين قد حرفوا المسمى من بانياس إلى بليناس. ودعم المعلومات التى كان وليم أوف نيوبره قد أوردتها بشأن أحداث بانياس الحربية، فى حين أضاف عليه تفاصيل توضح أن ذلك كان بمثابة نوع من المناورة الحربية من قبل نور الدين بأن أشاع النية فى مهاجمة بانياس بغرض الضغط على ملك بيت المقدس لشل حركته ومنعه من التدخل فى شئون مصر. فى حين أتى فى روايته بما يشير إلى أنها سقطت بسبب إهمال النائب عليها وربما نتيجة رشوة قسيس يدعى روجر Roger، بيد أنه لم يذكر شيئاً عن مصير أهلها الصليبيين<sup>(١)</sup> الأمر الذى كان واضحاً عند مؤرخنا الذى قدم فى هذا الصدد أيضاً إضافة انفرد بها وهى أن القلعة سقطت نتيجة رشوة القائم على حمايتها من قبل الملك الصليبي، نظراً لأنه كان مسلماً حتى وقت قريب، ولكن بالرجوع إلى المصادر الإسلامية يتضح أن مؤرخنا وقع فى لبس نظراً لأنه منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود برزت شخصية شيعية كانت قد استحوذت على القلعة بالفعل، ألا وهو إسماعيل العجمى، وخضعت له بانياس حتى تسلمها الصليبيون منه تحسباً من حكام دمشق ونكاية فيهم<sup>(٢)</sup>. بيد

أن هذا اللبس ينم عن أن صاحب المدونة كان يحاول تقصى أخبار الشرق، فوصلت إلى مسامعه بعضها مشوها أدخله في هذه الدائرة.

وفى واقع الأمر لم يكن سقوط بانياس في الثامن عشر من أكتوبر ١١٦٤م/ ٣٠ من ذى القعدة ٥٥٩هـ. وحده الذى دعا عمورى للخروج من مصر، إنما أدى تفاقم الوضع قبل ذلك بما يزيد عن الشهرين فى إمارة أنطاكية إلى محاولة نجدتها بعد قيام نور الدين محمود بمعاونة قوات الموصل والأرناؤة لمهاجمة قلعة حارم الواقعة فى الشمال بشكل مباغت، وأنزل هزيمة كبرى بين الصليبيين خلال الأيام الأولى التى وصل فيها جيش عمورى إلى مصر<sup>(٣)</sup>. ولما كان سقوط بانياس قد حدث فى تاريخ أقرب لانسحاب

(1) William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 304-307, 309-310.

(٢) كانت طائفة الإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) قد استحوذت على بانياس لوضع سنوات تحت قيادة هذا الزعيم، انتهت بتسليمها للفرنج عام ١١٢٩م/٥٢٣هـ. ولمزيد من التفاصيل راجع: ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ٢٢١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٢٩؛ انظر أيضا

Grousset, R., op. cit., vol. II, p. 661.

(3) William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 308-309; cf. also Runciman, S., op.cit., Vol. II, pp. 368-369.

عمورى من مصر نوفمبر ١١٦٤م / ذى الحجة ٥٥٩هـ<sup>(١)</sup>، فقد اعتبره مؤرخنا أنه السبب المباشر فى الانسحاب دون الانتفات لهزيمة الصليبيين عند حارم وسقوطها، كذلك جاء وصفه للملك عمورى بالمنتصر فى هذه الجولة، وهو أمر لا يتفق مع الواقع، اللهم إذا وضع فى حسابه أن وزير مصر كان قد عرض جانبا من ثروة مصر على الملك الصليبي مقابل حمايته من نور الدين. ومن ثم فلا فضل للملك الصليبي فى ذلك وإنما تخاذل شاور وخداعه لشيركوه يفسران النصر الجزئى الذى أحرزه الصليبيون فى تلك الجولة.

ثم ينتقل المؤرخ إلى الحديث عما اعتبره الجولة الثانية من الحملات التى قادها الملك عمورى على مصر. التى وقعت أحداثها فى بواكير عام ١١٦٧م/ ربيع أول ٥٦٢هـ، ذاكرا أنه استقى مادته التاريخية من بعض المحاربين الصليبيين الذين اشتركوا فى أحداثها موضحا أنه: "بعد بضع سنوات غدا الأتراك أكثر شجاعة وحماسة وقوة، ولم تحثهم فى تلك المرة شهوة السيطرة على مصر بقدر ما حفزتهم رغبتهم فى الانتقام مما حاق بهم من فشل سابق فى الحملة الأولى، ذلك أنهم وصلوا أعماق مصر تحت قيادة شيركوه، وفى تلك المحاولة افتقد الملك المصرى ثقته بنفسه تماما، ونتيجة لذلك راح يرسل السفراء على الفور يلتمسون

المساعدة من الملك الصليبي وفقا لما هو مبين من معاهدات معه؛ فأخذ يضع تدابير أكثر حذراً، وتمكن من دخول مصر بقوات ضخمة من المشاة والفرسان، وهناك انضموا إلى الجيش المصري عاقدين العزم على مهاجمة الأتراك. فانسحبوا إلى الصحراء بمهارة ليكون قرار الهجوم بأيديهم لا بيد شيركوه<sup>(٢)</sup> وفي الواقع تأتي المادة الواردة في كتاب الأعمال فيما وراء البحار لوليم الصوري لتبين هذه الأحداث إذ أتت بتفاصيل اجتماع القادة الصليبيين في المملكة في مدينة نابلس، كما أبرز الكتاب جهود الملك في حشد وتنظيم جيشه، وخطته لجمع المال والعشور وتعرض لخط سير الجيشين الإسلامي والصليبي، حيث وصل الأول إلى أطفح عند الجيزة ثم عبر النيل حيث عسكر في مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل. أما الجيش الصليبي فقد وصل إلى بلبيس ومنها اتجهوا صوب القاهرة وعسكروا عند الضفة الشرقية للنيل<sup>(٣)</sup>.

(1) Schlumberger, G, Campagnes du roi AmauryI de Jérusalem en Egypte, (Paris, 1906), pp.101-102.

(2) William of Newburgh, op. cit., bk.2, Ch. 23: 2-3.

(3) William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 317-318.

انظر أيضاً: ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص ٣٢٤-٣٢٧، وكذلك: أبو شامة، المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٣.

ثم يستأنف مؤرخنا الإنجليزي روايته، فتحدث عن وقوع مناوشات بين المعسكرين الإسلامي والصليبي لم يفصح عن تفاصيلها، ولكنه أوضح أنه في يوم عيد الفصح الموافق ١٩ أبريل ١١٦٧م / ٢٧ جمادى الأولى ٥٦٢هـ، وبينما كان الصليبيون يحتفلون بهذه المناسبة إبان إقامتهم داخل معسكراتهم المقامة في الضفة الشرقية للنيل فإن هذه المناسبة المباركة لم تمر إلا وقد ظللها الله ببركاته؛ حيث توافرت للجيش مؤن وأطعمة لم تكن في حساباتهم، وذلك من خلال صيد أعداد ضخمة من الخنازير البرية كانت قد ظهرت أمامهم فجأة<sup>(١)</sup> بيد أن المؤرخ وليم الصوري القريب من الأحداث لم يشر إلى هذه الرواية في سرده التفصيلي، وفيه سجل عقد اتفاقية صلح دائمة بين شاور وعموري تقوم على التحالف الحربي فيما بينهما، الأمر الذي منح الصليبيين فرصة بدء جيش شيركوه بالقتال ومناوشته بعد اجتيازه النيل ليلاً<sup>(٢)</sup>. وبذلك تجتمع الشواهد على أن ما كان من صيد ثمين رزق به المعسكر الصليبي قد يكون رمزاً لمدد ومؤن أتت إليهم من حليفهم شاور. وإن صح ذلك فهذا يقوى الانطباع بأن المؤرخ لديه حس أدبي مميز جعله يستخدم الكناية فيما يعبر وربما كان لديه من وسع الخيال حتى وضع هذه الواقعة في قالب اسطوري.

ويواصل المؤرخ وليم أوف نيويره روايته للأحداث الحربية في هذه المرحلة من الحملة على مصر، وفيها يذكر: "في صباح اليوم تقدم الصليبيون لمواصلة مطاردة أعدائهم، وعندما خارت قوى فرق المشاة المشتبكة أمرهم الملك عمورى بالتوقف عن القتال، وتقدم ومعه الفرسان سريعا أمامهم. وفي المقابل حينما اكتشف هذا الأمر القائد شيركوه المحنك؛ عقد العزم على الدخول في المعركة بعد أن تأكد من أن النصر سيكون حليفه نظرا لتجرد الجيش الصليبي من عنصر المشاة، اعتمادا منه على تفوق سلاح الفرسان في جيشه، وتبع ذلك اشتباك دموي وشرس للغاية، استمر منذ الساعة السابعة نهارا حتى آخر ضوء. وانتهى الأمر بأن لجأ كل من الحيشين اللذين أصابهما الخوف بسبب تناقص أعدادهما ومعنوياتهما بقدر واحد على حد سواء إلى معسكراتهما، ولم يفصل بينهما إلا نهر النيل عند مخاضة كان الصليبيون قد حرصوا بقوة على تأمينها

(1) William of Newburgh, op. cit., bk.2, Ch. 23: 3.

(2) William of Tyre, op. cit., pp. 318-322.

وفضلا عما ورد عند وليم الصورى عن بنود الاتفاقية يمكن مراجعة دراسة اهتمت بالظروف التي أحاطت بإبرامها وناقشت مآرب الصليبيين منها في:

Schlumberger, J., Campagnes du Roi Amaury, pp. 115-117.

والسيطرة عليها من أجل الأخذ بناصية أعدائهم. وفي جنح الظلام جمع الملك الصليبي قاداته ليتفقد الجيش، فراعته كثرة خسائره نظرا لوجود أعداد كبيرة من الجرحى بين صفوف الجيش، وأرجع وقوع تلك الكارثة إلى غياب الجزء الأعظم من قواته في الخلف، وحينئذ أبلغ القادة بأنه من المستحيل الاستمرار في المعركة مع الصباح؛ ولذا فما من بد من العودة في سكون الليل إلى بقية الجيش، ولقى ذلك القرار استحسانا من الجميع فانسحبوا في هدوء من الطريق ذاته الذي جاءوا منه. وأقدم الأتراك على اتخاذ الخطوة ذاتها فتقهقروا في احتراز أيضا<sup>(1)</sup>. "هذا وقد شرح وليم الصورى جهود الملك في إقامة جسر عند المخاضة وأطال في الحديث عن المعارك السجال البرية منها والنهرية. وتميز بتحديد تاريخ المعارك ومكانها، بل وأعداد المشاركين فيها وانتقال المعارك إلى المنيا في صعيد مصر، وما آلت إليه<sup>(2)</sup>.

وبالنظر بعين مقارنة على النصوص المصدرية المتاحة في هذا الجانب من الجولة يتضح إلى أي حد كان وليم أوف نيويره موضوعيا في روايته، حيث بدت منصفة لشيركوه وجيشه، وهذا ما يستشف من رواية نظيره وليم الصورى دون إفصاح صريح منه، كما كانت إشارة مؤرخنا إلى أن الملك الصليبي قد انتابته الصدمة لعظم خسائره، ما يتضمن التأكيد

على حيدته. والذي حدانا إلى الإحساس بموضوعية مؤرخنا ما أورده المؤرخ ابن الأثير عن المعارك عندما أبدى دهشته من أن "ألفى فارس يهزم معسكر مصر وفرنج الساحل"<sup>(٣)</sup> ونخلص من ذلك إلى أن هزيمة الصليبيين غير كاملة. كما أن انتصار المسلمين لم يكن حاسماً.

وتتمثل الخطوة التالية في هذه الجولة عند مؤرخنا في انتقال المعارك إلى مدينة الإسكندرية فيذكر: "توجه الأتراك إلى الإسكندرية في حين اجتمع مشاة الجيش الصليبي إلى فرسانهم وتقدم الملك الصليبي لمحاصرة الإسكندرية بعد ما تمكن من دعم جيشه بصعوبة بأعداد إضافية من القوات كان قد حصل عليها بالاستسلام، ونجح في طرد الأتراك مرة أخرى من مملكة مصر . وعاد إلى وطنه بمجد عظيم"<sup>(٤)</sup>. وبذلك أنهى

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.2, Ch. 23: 3-4.

(2) William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 323-327, 331-334.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص ٣٢٧.

(4) William of Newburgh, op.cit., bk.2, Ch. 23: 4.

المؤرخ في إيجاز ما اعتبره الحملة الثانية للملك عمورى على مصر. بينما يقدم المؤرخ وليم الصورى تفاصيل للأحداث يفهم منها أن القوات التي زود بها عمورى جيشه ما هي إلا قوات شاور التي تحالفت مع الصليبيين كما أوضح أن شيركوه استولى على المدينة وحاصره عمورى بداخلها؛ إذ أكد على أن أهالى المدينة هم الذين سلموها لشيركوه. وأضاف أن الحصار كان قد أحكم عن طريق الأسطول فى البحر، فضلا عن القوات المتحالفة برا. كما أوضح أن الذى قاد عملية الدفاع داخلها كان صلاح الدين الأيوبي بعد أن تركه فيها شيركوه متوجها إلى القاهرة وما والاها من بلاد الصعيد. ومع اشتداد الحصار طلب صلاح الدين النجدة من عمه. وما لبث الطرفان بعد عناء القتال أن دخلا فى مفاوضات الصلح وعقدت اتفاقية بينهما انسحب بموجبها شيركوه وعمورى بجيشهما فى الحادى والعشرين من أغسطس ١١٦٧م / ٣ من ذى القعدة ٥٦٢هـ. أما شاور فقد تسلم الإسكندرية واستقر له الأمر فى مصر فى ظل الحماية الصليبية<sup>(١)</sup>.

على ذلك نلاحظ مدى اهتمام مؤرخنا بإبراز الملك عمورى بطلا صليبياً ، كذلك نلاحظ موضوعيته فى تناول أحداث مصر ، ولكن فى ذات الوقت لم يتعرض البتة لما انتهى إليه السباق بين الملك وشيركوه، وهو الذى حسم كما هو معروف بخضوع مصر للدولة النورية،

وبدأ عهد جديد انتهى بأن تولت مصر فيه دور الريادة في الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ذلك الأمر الذي سيحظى باهتمام المؤرخ ويتضح في الصفحات القادمة.

هكذا شمل المؤرخ الأسباب والأحداث فالنتائج المتعلقة بحملات الملك عمورى على مصر ودمج أحداثها في حملتين فقط؛ وبداية وضع يديه على الهدف من سياسة الملك الصليبي حيث أشار إلى طمعه في ثروة مصر نظرا لضعف استعداداتها الحربية، وفي المقابل ادعى أن ذلك كان هدف نور الدين محمود أيضا. بيد أنه أغفل الحملة الباكرة للملك الصليبي ضد مصر فتحدث عن حملته الثانية على أنه أول ما قدمه من نشاط حربي صليبي ضد الفاطميين في مصر. فتناولت الأولى بالنسبة لروايته الخطوط العريضة لحملة ١١٦٤م/٥٥٩هـ وما ترتب عليها من نتائج، أما في الجولة الثانية فلم تكن بعض جوانبها واضحة المعالم عند المؤرخ، إذ وقع في بعض اللبس في عرض التفاصيل، ومن ذلك أنه أسند إلى الجيش الصليبي إمساكه بزمام تحديد موعد المعارك فيها بدخوله

(1) William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 334-335, 337-343.

الصحراء، بينما كان شيركوه هو الذى خطط لذلك بجعل النيل يحول بين جيشه والصليبيين وقوات شاور. وأغفل المؤرخ بعض تفاصيل المعارك المهمة مبدئيا بعض الموضوعية من خلال إبراز فجاعة الصليبيين في خسائرهم أثناء القتال، ولم يلق الأضواء الكافية على أحداث حصار الإسكندرية، كما لم يصل إلى الحقيقة التي انتهت إليها حملات عمورى وهي ظفر نورالدين محمود بمصر في نهاية المطاف. هذا في حين تعددت المصادر الإسلامية التي أبرزت تلك الأحداث فضلا عن روايات وليم الصوري التفصيلية.

وفي المرحلة التالية من مدونة وليم أوف نيوبره، وتحديدًا في الفصل العاشر من كتابه الثالث<sup>(١)</sup> يحرص المؤرخ على رصد الوضع الداخلى على الساحتين الصليبية والإسلامية، حيث قال: "أنه من الضروري تقديم نبذة عن أحوال مملكة بيت المقدس منذ عهد الملك عمورى [الأول]. فقد توفى هذا الملك بعد عدة حملات عسكرية مظفرة قام بها، تاركا الحكم لابنه القاصر بلدوين الرابع [Baldwin IV] (١١٧٤-١١٨٥م/٥٦٩-٥٨١هـ). الذى كان شابا واعدًا للغاية حيث قضى فترة حكم فيها المملكة بما لديه من قدرة عقلية فائقة دون القدرة البدنية، إذ أصابه الله بداء البرص"<sup>(٢)</sup>. وبينما صممت مؤرخنا عن تحديد تاريخ وفاة الملك عمورى وهو الحادى عشر من يوليو ١١٧٤م./١٠ من ذى الحجة ٥٦٩هـ، وذكر الظروف

التي أحاطت باعتلاء ابنه العرش، فإن وليم الصوري يطالعنا بها في إسهاب وتدقيق يضعاننا أمام مؤرخ قدير شاهد للعيان يسجل الأحداث، ومما أوردته أن تم تنصيب بلدوين ملكا وهو لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره، وبموافقة من نبلاء المملكة. ولم يتم تعيين وصى على العرش، إنما تولى تسيير دفة الحكم بتعسف القائد العسكري ميلون أوف بلانسي Milon of Plancy سيد إقطاعية شرق الأردن بحكم زواجه

(١) يقع هذا الفصل تحت عنوان: "عن وصول بطريك إنجلترا، وعن وفاة ملك بيت المقدس... وفترة حكم ابنه... وعن صلاح الدين". انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 10: 1-2.

ويلاحظ أن السياق التاريخي عند المؤرخ في هذا الفصل مضطرب إلى حد ما؛ نظرا لأنه اشتمل على ذكر أحداث وقعت على مدى عقدين من الزمان دون الترتيب. وهذا الأمر سيأخذه في الاعتبار في الصفحات التالية.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 10: 2.

من سيدة الإقليم ستيفاني أوف ميللي<sup>(١)</sup>، Stéphanie of Milly، الأمر الذي رفضه كونت طرابلس ريموند Raymond Count of Tripoli (١١٥٢-١١٨٧م/٥٤٧-٥٨٣هـ) بصفة قرابته بالملك، وطالب بالوصاية على العرش، فقد كانت والدته هوديرنا Hodierna خالة عموري الأول، كما أن زوجته هي إستيفاني أوف بور Stephanie of Bures أرملة ولتر أمير الجليل Walter Prince of Galilee. وعلى هذا تقرر تنصيب ريموند وصيا على عرش المملكة في العام ذاته ١١٧٤م/٥٧٠هـ بعد أن خلا أمامه الطريق بأن اغتيل ميلون أوف بلانسي<sup>(٢)</sup>.

على الجانب الآخر تحدث وليم أوف نيوبره تفصيلا عما يجري من أحداث في المعسكر الإسلامي. فسجل حدث وفاة نور الدين محمود زنكي على أنه وقع في الوقت ذاته تقريبا الذي توفي فيه الملك عموري<sup>(٣)</sup> علما بأن المؤرخين المعاصرين قد حددوا تاريخ وفاته بالحادى عشر من شوال ٥٦٩هـ/ الخامس عشر من مايو ١١٧٤م<sup>(٤)</sup>. ومن ثم كان الفارق الزمني بين وفاة الملكين حوالى الشهرين. وأدرك صاحب المدونة أن مملكة نور الدين حين وفاته قد ضمت أراضي بلاد النهرين وسوريا (بلاد الشام) بعد أن خلف والده (عماد الدين زنكي) الذي كان من الطبيعي أن يذكره بسوء "الملعون"، بينما وصف ابنه نور الدين محمود "بأنه كان بمثابة سوط غضب الله على المسيحيين"<sup>(٥)</sup>. وعليه تبدو كتابات المؤرخ النيوبرهي ذات الصلة بالقائدين عموري ونور الدين قزمية مقارنة

(١) انتقل إقطاع شرقي الأردن إلى ستيفاني ابنة فيليب أوف ميللي Philip de Milly بداية من عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ. كورثة لممتلكات أمها المتوفاة وأبيها الذي سلك الرهينة عام ١١٦٦م / ٥٦١هـ، وأصبح مقدا لفرسان الداوية، ولمعرفة المزيد انظر:

Tibble, Steven, Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford, 1989, pp. 88-89.

(2) William of Tyre, op.cit., Vol.II, pp.401, 416-417.

(3) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 10: 2.

(4) Idem.

(5) Idem.

لا شك أن شخصية نور الدين محمود قد اقترنت بصحة القرن السادس الهجري/ الثاني عشر للميلاد في الجهاد ضد الصليبيين المرتكن إلى صحة العقيدة والوحدة الإسلامية. وجاء لكي يمثل أهم حلقات الكفاح الإسلامي في هذه المرحلة. وأبدي عبقرية سياسية وإدارية وعسكرية لتحقيق أهدافه النضالية. وعنه فهناك أكثر من دراسة متخصصة ومنها: حسين مؤنس: نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩م، حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، القاهرة، ١٩٥١م.

بكتابات معاصره ولیم الصوري في هذا الصدد؛ نظرا لأن الأخير بدأ مسيطرا على قلمه وعالما بما يدور من حوله باقتدار. ومن ثم يقتصر فضل ما جاءت به المدونة إبان هذه المرحلة في أنها أكدت ما ورد في المصادر المعاصرة، كما أنها عكست هموم أهل الغرب تجاه الأحداث التي تجرى عند إخوانهم في الشرق اللاتيني، وأن هناك تواصلًا لم يكده ينقطع مع اللاتين فيما وراء البحار.

أما شخص صلاح الدين الأيوبي فقد حاز على نصيب كبير من الاهتمام. ويتضح هذا في تقييم المؤرخ له، فذكر عنه في مواضع متفرقة أنه "امتطى فرس سلفه نور الدين" محمود. ولعله يقصد بذلك أنه سار على دربه، كما رأى أنه لم يكن مجرد "سوط عذاب [كسابقه] بل كان مطرقة عذاب بالنسبة للمسيحيين". وشرح المؤرخ باقتضاب الظروف التي أحاطت بإمساكه بالسلطة في الدولة النورية، فذكر: "أنه ابن أخى القائد الكبير شيركوه. وعندما مرض ثم توفى [عام ١١٦٩م/٥٦٥هـ] تولى صلاح الدين قيادة الجيش النورى في مصر<sup>(١)</sup> وتتفق المصادر الإسلامية مع المدونة فيما ذكرت، بيد أنها كانت أكثر إفاضة حيث أوضحت الظروف التالية لذلك وكيف تولى صلاح الدين الوزارة في مصر واتخاذها قاعدة له في ظل التبعية للخلافة العباسية بداية من سبتمبر ١١٧١م/محرم ٥٦٧هـ، ثم وفاة آخر الخلفاء الفاطميين العاضد. وما حدث بعد ذلك بثلاثة أعوام تقريبا حين وفاة نور الدين

محمود<sup>(٢)</sup>. فأكدت ما كان وليم أوف نيوبوره قد ذكره عن ضم صلاح الدين دمشق في ١١٧٤م/٥٧٠هـ "بلا ضربة ولا طعنة" بيد أن مؤرخنا عزا حدوث ذلك بأنه: "حينما توفي نورالدين طلب صلاح الدين من أرملة [عصمة الدين خاتون] أن تتزوجه، وعند ذلك سلمته دمشق وأعمالها، فضمها إلى ممتلكاته... والثابت أن هذا الزواج لم يتم إلا بعد ذلك بحوالى عامين ١١٧٦م/٥٧٢هـ<sup>(٣)</sup>. ومن ثم يجب تصويب ما

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 10: 2.

(٢) ابن واصل، (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، محمد بن سالم، جمال الدين: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١-٣، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠م، ج ١، ص ١٦٨-٢١٨.  
(٣) أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٧؛ ابن شداد: المصدر لسابق، ص ٥٠؛ أبو الفدا: (ت ١٣٣١هـ/١٣٣١م) إسماعيل بن علي محمود، الملك المؤيد صاحب حماة: المختصر في أخبار البشر، أربعة أجزاء في مجلدين، بيروت (ب-ت)، ج ٣، ص ٥٦. راجع أيضا:

Loc.cit.

ظن فيه مؤرخنا من أن ضم صلاح الدين دمشق كان نتيجة لزوجته من أرملة نور الدين. وأيا كان الأمر فقد كانت هذه الخطوة بمثابة الخطوة الأساسية في توحيد الجبهة الإسلامية.

واصل صاحب المدونة حديثه عن الخطوات التي اتبعتها صلاح الدين لتوطيد أركان حكمه فيقول: "ولأن الجيش التركي كان يحبه للغاية، قام بتطوير سلطته بالخدعة وطور خداعه بالسلطة حيث حرم [الصالح إسماعيل] ابن نور الدين من ميراثه، واستولى على إمبراطوريته الشاسعة للغاية" ولم يراع المؤرخ السياق التاريخي بدقة حيث جاء في مدونته "إن صلاح الدين أتبع ذلك بنقل قواته إلى مصر وخلع أمراء هذه الدولة من مراكزهم واستولى على المملكة المصرية شديدة الثراء، كما استولى على ليبيا، والجزيرة العربية واكتسب اسمه رفعة عالية وسطع نجمه متفوقا على جميع ملوك الشرق وأصبح سلطانه يشمل ثمانى ممالك من أغنى البلاد، ومع كل هذه الإنجازات فقد شعر فى قرارة نفسه أنه لم يفعل إلا القليل طالما أن الصليبيين الذين يحول بينه وبينهم البحر ما زالوا يسيطرون على بيت المقدس وأنطاكية ومدن سوريا الساحلية. ولذلك أقدم هذا الرجل الذى ليس له مثيل فى دهائه وسلطانه يكرس ضدهم جميع ما لديه من قوات من شتى البلاد الخاضعة له واضعا نصب عينيه أن يلتهم الشعب الصليبي لقمة سائغة، وأن يطيح بصليب السيد المسيح فى كل أرجاء مناطق الشرق حيث كان<sup>(١)</sup>".

ويتتبع الكتابة التاريخية فى المدونة فعلى نحو ما ورد فى الفقرات السابقة نلمس قدرة المؤرخ على رصد أهم التطورات التى تجرى على الساحة الصليبية من انزواء قادة مثل نور الدين محمود وعمورى الأول بوفاتهما، وكذلك ما حدث من تحول على الساحة بسطوع نجم صلاح الدين بتوسيع إمبراطوريته بالاستيلاء على دمشق وغيرها توحيدا للجبهة الإسلامية. وأدرك المؤرخ هذا التحول فى رؤية واضحة لما يصبو إليه القائد صلاح الدين ويخطط له وأنه قصد من ذلك إزاحة الكيانات الصليبية فى الشرق. ولما كان مؤرخنا مقيما فى الغرب فتحسب له تلك الرؤية الجليلة رغم بعده عن الساحة، وهذا ما سيتأكد أيضا من خلال رصده للأحداث فى الصفحات التالية.

(1) Idem.

يستأنف المؤرخ فى موضع آخر الحديث عن شخص صلاح الدين. ويضيف أنه رغم عدم انتمائه إلى سلالة ملكية، إلا أنه تمكن ببراعته وحنكته من تأسيس تلك الدولة الشاسعة. ونجح فى إحباط محاولات كل قادة الغرب فى النيل من البلاد، بيد أنه عند وفاته تم تقسيم إمبراطوريته وفقا لعدد من حلفوه، الأمر الذى جلب الفوضى والتناحر فى بيته. عن ذلك راجع:

Ibid, bk.3, Ch. 10: 2.

والصفحات التالية تعكس إلى أى حد وضع المؤرخ وليم أوف نيويره يده على حلقات الصراع بين المعسكرين الصليبي والإسلامي، وإلى أى حد نجح صلاح الدين فى تحقيق إنجازاته وفقا لخطته بغرض توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، فتعرض فى الفصل الحادى عشر الكتاب الثالث<sup>(1)</sup> إلى أبرز الجهود الصليبية كرد فعل على شروع المسلمين فى توحيد جبهتهم بعد ضم دمشق وفى ذلك يقول المؤرخ: "فى حوالى ذلك الوقت، دخل فيليب كونت فلاندر Philip of Alsace Count of Flanders الموقر الذى اتصف بالتقى والورع، أرض مملكة بيت المقدس بجيش كبير، حيث كان عاقدا النية على إتمام عمل حرى ما ضد صلاح الدين، وعلى ضم أراضي جديدة إلى الممتلكات الصليبية فى الشرق، إلا أن طائفة فرسان الداوية وجهوا له إهانات شديدة، مما اضطره إلى التوجه إلى أنطاكية بناء على دعوة من أميرها بوهيمند الثالث [Bohemond III] (1163-1201م / 559-598هـ). ووسط جيشه والرفاق ضرب الكونت حصارا على مدينة Hareng<sup>(2)</sup> إلا أنه لم يظفر منها بشيء فعاود أدراجه إلى بلاده بخفى حنين مذلولاً مدحورا<sup>(3)</sup>" وقد أرخ وليم الصورى قدوم هذه الحملة فى (1177م / 573هـ)، امتدادا للحملة الأربعة التى اشترك فيها أبوه ثيبرى كونت فلاندر Thiery of Flanders من قبل. وأضاف المؤرخ أن الآمال كانت معقودة من قبل أمراء الصليبيين فى فيليب لإنجاز أهداف خاصة بهم. ولما بلغ المرض بالملك بلدوين الرابع ما

حال دون مقاتلة المسلمين بنفسه لجأ إلى فيليب للقيام بهذه المهمة مقابل توليته الوصاية على عرش المملكة. ونظرا لتشكك الكونت في القادة الذين سيشاركونه الهجوم على مصر أبدى تحفظات لم يقبلها نبلاء المملكة خاصة

(١) وضعه تحت عنوان: "كيف تم التغلب على صلاح الدين وكيف انتصر هو بعد ذلك" انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 11: 1-4.

(٢) بمراجعة المصادر المعاصرة الأخرى يتبين أن مدينة Hareng الواردة ذكرها في النص ما هي إلا مدينة حارم الواقعة على بعد ثمانية وخمسين كيلوا مترا غربى حلب، وكانت آنذاك في حوزة الصالح إسماعيل بن نورالدين الذى نجح في احتراق صفوف المحاصرين بتجريدة إلى المدينة. أنظر:

William of Tyre, op.cit., pp.424-425, 436-445.

ابن العديم (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م). كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة؛ "زبدة الحلب في تاريخ حلب"، ج ٣، تحقيق: سامى الدهان، دمشق ١٩٥١م، ج ٢، ص ٢٥-٢٦؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص ٤٤٢-٤٤٣.

(3) William of Newburgh, bk.3, Ch. 11: 1.

بيت إيلين فى بينى. كما أظهر كل من ريموند الثالث أمير طرابلس ويوهيمند الثالث أمير أنطاكية رغبتهما فى الانتفاع بحملة فيليب لصالحهما. وغادر فيليب بيت المقدس فى أواخر أكتوبر من العام نفسه وقاد أعمال حصار حارم، وعندما علم المحاصرون بقرب قدوم صلاح الدين فضوا الحصار، وعاد فيليب ثانية إلى بيت المقدس لقضاء عيد القيامة ٢٥ ديسمبر / ٣ رجب ٥٧٣ هـ. من العام نفسه قبل إقفاله إلى القسطنطينية<sup>(١)</sup>. وبذلك يكون مؤرخنا صاحب المدونة قد قدم إضافة انفراد بها موضحا بها سببا آخر وراء انسحاب الكونت فيليب من الأراضى المقدسة إلى أنطاكية. حيث أشار إلى دور طائفة الداوية فى ذلك.

وتتلاقح الفقرات فى مدونة وليم أوف نيوبره التى تتعلق بأحداث الحرب الصليبية فى الشرق، مسجلا أنه: "فى شهر نوفمبر من العام ذاته [١١٧٧م/٥٧٣هـ.] حينما علم صلاح الدين أن أرض الرب تفتقر أكثر من العادة إلى المدافعين عنها، نتيجة انسحاب قواتها [للاشتراك فى أعمال حارم] قام بتوجيه هجوم مفاجئ عليها على رأس قوات لا حصر لها، ولم يتوقف عند الحدود بل اخترقها متجها إلى مدينة بيت المقدس مباشرة بالرغم من أنه كان لزاما عليه الاستيلاء أولا على المناطق المتاخمة لبلاده، وحينئذ قام الأمير المسيحى، الذى عوضه نكاؤه عما أصاب بدنه من جذام [أى الملك بلدوين الرابع] بسرعة ومعه جميع ما أمكنه حشده من جيش فى وقت قصير، متأهبا لدخول معركة لم يعتبرها معركته شخصيا بل

اعتبرها معركة الله. ولم يكثر بكثر أعداد جيش عدوه مرتكنا إلى مؤازرة الله له، دافعا أمامه صليب الرب. وما لبث أن دخل في قتال مع الأعداء بالقرب من مدينة الرملة التي كانوا قد ضربوا عليها الحصار، وتمكن من هزيمة تلك الجيوش الجرارة . . . . . ، وقرر صلاح الدين أن يهرب، ففر بصعوبة بالغة من أرض المعركة، بينما لقي الآلدى من أتباعه حتفهم وبعون من الله أبلى المسيحيون بلاء حسنا فى القتال، وكان ذلك قبل بداية شهر ديسمبر بسبعة أيام<sup>(٢)</sup> أى الخامس والعشرين من نوفمبر من العام المذكور.

(1) William of Tyre, op.cit., pp. 417-420.

وعن الظروف التي أحاطت بخروج حملة فيليب من الغرب الأوروبى راجع:

Roger of Hovden, op.cit., Vol.I, pp. 438-439, 452, cf. also, Macintyre, A.D., Williams, A.D., Henry II of England and the Holyland, ed. In English Historical Review, Vol. XCVII, London, 1982, p. 726.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 11: 1.

هكذا تضمنت رواية مؤرخنا معلومات قيمة تبدو كافية للتعرف على ملامح أحداث معركة تل الجزر Montgisard، كما سماها وليم الصورى. حيث سجل بدقة تاريخ وقوعها، إلا أن هناك تفاصيل لم يخطها قلم صاحب المدونة، ومن ذلك أنه أكتفى بالإشارة فقط إلى إنفاذ صلاح الدين لقواته من الساحل رأسا إلى عسقلان. وظن أن الجيش الإسلامى حاصر الرملة فى حين أن الملك بلدوين كان قد حوصر فى عسقلان، كذلك لم يدرك المؤرخ ما أجراه الملك الصليبي من تحركات واتصالات مع الداوية فى غزة التي كانت خاضعة آنذاك لهذه الطائفة من أجل الالتفاف عبر البحر لمباغته قوات صلاح الدين المتناثرة من جهة الشمال، مما أوقع الهزيمة بها جنوب شرقى الرملة. ولم يشر إلى الحالة السيئة والفوضى التي انتشرت بين صفوف المصريين أثناء الانسحاب<sup>(١)</sup>. وهكذا نلمس اهتمام المؤرخ وليم أوف نيويبره بأحداث عام ١١٧٧م/٥٧٣هـ الحربية، وإبراز دورالداوية فى فشل حملة فيليب كونت فلاندر فى الشرق، متجنباً فى الوقت ذاته إبراز دور تلك الطائفة فى انتصارالملك بلدوين الرابع فى معركة تل الجزر، مكتفياً بإرجاع هذا النصر إلى ذكاء وشدة بأس الملك الصليبي.

ومع تزامم الأحداث العسكرية ببيروز شخص صلاح الدين الأيوبي على الساحة الإسلامية يتحدث المؤرخ وليم أوف نيويبره عن معارك أعقبت معركة تل الجزر بحوالى عام، ومن ثم فهى تؤرخ بعام ١١٧٨م/٥٧٣هـ بيد أنه من بين المؤرخين المحدثين من يقر بأن

هذا العام المذكور لم يشهد سوى عدة مناوشات والرد عليها بين الفريقين الإسلامى والصليبي رغم انتقال صلاح الدين إلى مقر حكمه فى دمشق<sup>(٢)</sup> وغدا يطل مباشرة على الجبهة الشمالية لمملكة بيت المقدس . واستهل مؤرخنا الأحداث فى هذا العام

(١) يمكن مراجعة التفاصيل الخاصة بالخطط المتبعة وتحركات الجيشين الإسلامى والصليبي وما وقع من هزيمة لجيش صلاح الدين فى تلك المعركة فى:

William of Tyre, op.cit., Vol.II, pp.425-429; Michel le Syrien, op.cit., Vol.III, p.373.

العماد الأصفهاني، (ت ٥٥٩٧هـ./١٢٠٠م). عماد الدين محمد بن محمد ابن حامد: البرق الشامى، ج ٣، تحقيق: د. مصطفى الحيارى، الطبعة الأولى، عمان-الأردن ١٩٨٧م، ص ٥٤-٥٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص ٤٤٣؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٣.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 11: 2, Runciman, S., op.cit., Vol.II, p.418.

بقوله: "اشتعل غضب السماوات ضد المسيحيين الذين أقاموا فى الأرض المقدسة؛ لأنهم كانوا يسلكون سلوكا غير قويم؛ ذلك أن صلاح الدين هاجم الأراضى الصليبية مرتكنا إلى تفوقه فى العتاد وأعداد جيشه الضخمة رغبة منه فى محو آثار هزيمة العام السابق، فى حين كانت قواتنا أفضل تنسيقا وأكثر عددا عن ذى قبل، الأمر الذى جعلهم مغترين بقوتهم غير معتمدين على الله. وحينئذ اندلعت المعارك بين الفريقين عند التخوم [الدمشقية-الجاليلية] لكن الله الذى كان قد منح النصر سابقا للمتواضعين، حال دون ذلك هذه المرة، حيث وقعت مذبة كبرى بين صفوف الصليبيين، ولقى عدد كبير من الفرسان وقادة فرسان الداوية مصرعهم. إضافة إلى أعداد كبيرة أخرى من النبلاء، بيد أن ذلك لم يكن سوى بداية أحزان الصليبيين<sup>(١)</sup> وهكذا تتكرر الملاحظة وهى أن مؤرخنا يهتم بتتبع دور فرسان طائفة الداوية السلبى فى الأحداث التى تجرى فى الشرق فهذه هى المرة الثانية التى يحرص على ذكرهم مقرونين بالفشل الصليبي.

وفى العام التالى ١١٧٩م. اشتعل الموقف بالقرب من بانياس من جديد، إذ يسجل وليم أوف نيوبره ما تصرفه أن فرسان طائفة الداوية شرعوا فى تشييد أسوار قلعة فى منطقة مخاضة الأحزان دعوها قلعة مخاضة بنات يعقوب Jacob's Ford<sup>(٢)</sup> على نفقتهم الخاصة بغرض كبح جماح القوات الإسلامية التى عادة ما تنطلق من قلعة بانياس، وتهدد المناطق الصليبية داخل المملكة. ورغم الأعمال الدورية من الفرسان بهدف تأمين عملية البناء

وارتفاع الأسوار لم يبد القادة المسلمون أى رد فعل فوري، إنما ظلوا مستتفرين لعمل ما قد يطلب منهم لمواجهة الأمر. وصدرت الأوامر بمحاصرة القلعة الجديدة بعد أن

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 11: 2.

(٢) عرفها الفرنج كذلك باسم قلعة بيت الأحزان وهي تقع على الجرى الأعلى لنهر الأردن بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية. ولمعرفة المزيد عن الحالة الأمنية في هذه المنطقة الحدودية راجع: على أحمد السيد: إمارة الجليل تحت حكم اللاتين ودورها السياسي في الصراع الصليبي الإسلامي في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي (١٠٩٩-١١٥٤ م./٤٩٢-٥٤٩ هـ). رسالة ماجستير تحت النشر، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٨ م، ص ٢٩٠-٢٩٤. ومن ثم فالقلعة تقع في موقع متوسط بين صفد ودمشق وطبرية. وقد شرع الصليبيون في تشييدها في أكتوبر ١١٧٤ م./٥٧٤ هـ. وقد أتى أبو شامة ببعض تفاصيل المعمار وما بذل في القلعة من أعمال بناء، وأوضح أهميتها العسكرية والأمنية على طريق التجارة. للمزيد راجع: كتاب الروضتين، ج ٢، ص ٨-١٣.

امتألت بالعتاد والرجال. فاجتمع الجيش الصليبي عند طبرية لرفع الحصار. ومما أخذه المؤرخ عليهم تراخيهم في التحرك. وبعد تشاور القادة أيقنوا أنه ليس من الحكمة مواجهة كل هذه الأعداد من المسلمين بدون انتظار مزيد من الدعم يأتى إليهم من القدس مع صليب الصليبوت. ونتيجة لهذا التكاثر سقطت قلعة مخاضة يعقوب وتم تسويتها بالأرض سريعا. كما تم قتل عدد كبير من الذين كانوا يتولون الدفاع عنها، وغنم المسلمون كميات ضخمة من العتاد والمؤن. ولم ينقض وقت طويل على صلاح الدين بعد هذا الانتصار إلا وقد توغل في أراضي المملكة الصليبية بشكل مباغت، وأعمل فيها سيفه، فاستولى على مدينة نابلس التي كانت تدعى فى الماضى سخيم Sychem، وهزم الجيش الصليبي وتشرذم وهو مئخن بالجراح وحاول الملك جاهاذا جمع أشلائه<sup>(١)</sup>.

وهكذا لخص مؤرخنا أسباب المعارك فى العام المذكور، وما آلت إليه من نتائج لها ما وراءها. وعليه يحسن توضيح ذلك، فهو يرى أن الموقف تفجر عسكريا عند مخاضة بنات يعقوب بسبب إصرار الداوية على بناء قلعتهم هناك رغم تعهد المملكة بعدم الإقدام على تحصين المنطقة، وأن الملك نصحهم بعدم تشييدها فى ذلك المكان تحديدا. بيد أنهم جمعوا الأموال لبنائها هناك، مما دعى مؤرخنا وليم أوف نيويبره لاتهامهم بالغطرسة التى تستوجب العقاب الإلهى. وبالفعل فرغم محاولة صلاح الدين استعاضة الصليبيين عن بنائهم القلعة بالأموال إلا أنهم استمروا فى غيهم وبنوها<sup>(٢)</sup>. ومن الأحداث التى يمكن أن نبرزها أيضا أن

فرخشاها ابن أأى صلاح الدين ونائبه على دمشق هو الذى قاد جيش المسلمين فى الجولة الأولى من القتال، وأنهم كادوا ينالون من الملك بلدوين وجيشه لولا تدخل القائد الصليبي همفري الثانى كندسطلب المملكة الذى أصيب بجروح بالغة فى المعركة أدت إلى وفاته فيما بعد. ويذكر أن هذه الجولة كانت قبل حصار المسلمين للقلعة، أما حينما تم الالتحام بعد تدميرها فقد كان مقدم الداوية أودو سانت أماند Odo St. Amand من بين أسرى الصليبيين، إضافة إلى قادة صليبيين بارزين آخرين<sup>(٣)</sup>. وأعقب ذلك عقد

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 11: 2-3.

(2) William of Newburgh, loc.cit.; cf. also, William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 438-440.

(3) William of Tyre, op. cit., Vol. II, pp. 440-445.

أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١-٢٣.

هدنة امتدت عامين بين بلدوين الرابع وصلاح الدين<sup>(١)</sup>. وهو أمر لم نجد له ذكرا عند مؤرخنا. كذلك فإن ما أورده من مهاجمة نابلس على أنه آخر أحداث المعركة فى شمال المملكة فإن هذا الحدث لم يقع إلا فى سبتمبر ١١٨٣م/ جمادى الأولى وجمادى الثانى ٥٧٩هـ<sup>(٢)</sup>. ومن ثم فرواية وليم أوف نيوبره لأحداث المعارك فوق أرض الجليل الأخيرة تتصف بالتعميم القائم على الوقوف على موضوع أو قضية معينة يتم سردها دون الاكتراث أو الالتزام بالسياق التاريخى بشكل دقيق. وقد يكون وازعه فى ذلك هو الإتيان فقط بجوهر الأحداث.

بدأ إذن العقد الأخير من عمر مملكة بيت المقدس الصليبية بتهديدات صلاح الدين العسكرية الخطيرة تلك فى الجنوب والشمال، إلا أن المؤرخ النيوبرهى تنبه فى خط متواز إلى وجود أخطار داخلية، ربما كانت أشد وطأة، فتناولها، فى الفصل العاشر من الكتاب الثالث (المشار إليه سلفا) أورد أن الملك الصليبي بلدوين الرابع كان قلقا على مملكته بسبب مرضه العضال، ولذا اتخذ من التدابير " ما يحفظ بها للذرية الملكية البقاء فى حكم البلاد، خاصة وأنه لم يكن لديه أبناء. وذلك من خلال تزويج أخته" سيبلا Sibylla التى لم تذكر المدونة اسمها من شخصية مرموقة تأتي من غرب أوروبا تكون جديرة بتحمل مسئولية حكم المملكة. بيد أن تفاصيل ذلك نجدها عند المؤرخ وليم الصورى الذى أوضح أنها تزوجت

الأمير وليم ذا السيف الطويل William Long-Sword. إلا أنه توفي بعد وقت قصير في أوائل عام ١١٧٧م / ٢٩ جمادى الآخر ٥٧٢هـ. ورغم أنها أنجبت منه طفلا

(1) William of Tyre, op.cit., pp.449-451-466-468

عقدت الهدنة في مايو ١١٨٠م. / شعبان ٥٧٦هـ. بشرط أن "المسافرين يسافرون"، وألا تنقطع حركة القوافل بين الشام ومصر. انظر: ابن أيبك الدوادارى: (ت ٧٣٢هـ./١٣٣١م.) أبو بكر عبد الله بن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٦ (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٣٨٠هـ./١٩٦٠م، ص ٥١. وللوقوف على تفاصيل المفاوضات، وتدقيق التاريخ الخاصة بالهدنة. راجع:

Nicholson R., op.cit., pp. 212-215.

(٢) العماد الأصفهاني: البرق الشامى، ج ٥، تحقيق: فالح صالح حسين، الطبعة الأولى، الأردن ١٩٨٧م، ص ١٤٩-١٥٠؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠، راجع أيضا:

Ernoul, op.cit., pp. 90-102.

(بلدوين الخامس الملك اللاحق) إلا أن المشكلة كانت لم تنزل قائمة في عدم وجود وصى<sup>(١)</sup>.

وقد اهتم وليم أوف نيوبره في الفصل السادس عشر من الكتاب الثالث<sup>(٢)</sup> بالوقوف على جوانب من الشخصيات الصليبية في الشرق التي ارتبط مصير بيت المقدس بها، فتناول من جديد قضية زواج أخت الملك بلدوين الرابع (سبيللا)، حيث ذكر: "أن الملك أثر تزويجها ثانية من أمير آخر هو جاي أوف بواتوه Guy of Poitou، الذى كان قد فر هاربا تاركا مقاطعة أكويتين من الملك هنرى الثانى ملك إنجلترا بعد أن نفاه منها، ومنذ ذلك الوقت أخلص جاي في خدمته لملك بيت المقدس<sup>(٣)</sup>". ويتفق روجر أوف هوفدن مع مؤرخنا في هذه الرواية، ويضيف أن فرار جاي كان نتيجة إقدامه على جريمة قتل باتريك إيرل سالسبرى Patrick Earl of Salisbury أثناء عودته من الحج<sup>(٤)</sup>.

وفى هذا الموضوع أيضا أبرزت المدونة شخصية ريموند الثالث أمير طرابلس فذكرت عنه: "كان كونت طرابلس وصيا على عرش الملك الصبى بلدوين ومن المفترض أنه هو الذى دس له السم فأماتته، وهو رجل عظيم وقوى كما كان على صلة قرابة بملوك المملكة سالفا، ولذا فقد كان طامحا فى أن يكون ملكا ظنا منه أنه سيصل إلى مأربه بسهولة

بالتخلص من هذا الطفل القاصر. إلا أن البطريرك هرقل Herculies [١١٨٠-١١٨٧ م/٥٧٦-٥٨٣هـ] وعدد من كبار أمراء الأرض المقدسة، وكذلك فرسان الداوية

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 10: 2, 111-112; William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 451-454.

والأمير وليم المذكور يعرف أيضا باسم وليم مونتيفرات William Montefrat؛ نظرا لأنه أكبر أبناء ماركيز

مونتيفرات، وهو من أغنى الأمراء في شمال إيطاليا، كما أنه كان ابن عم فريديك بربروسا Frederic

Barbarosa إمبراطور ألمانيا (١١٥٢-١١٨٩ م / ٥٤٧-٥٨٦هـ) وخال الملك لويس ملك فرنسا. انظر:

Runciman, S., op.cit., Vol. II, p. 411.

(٢) الذى يقع تحت عنوان " عن جاي ملك بيت المقدس ". انظر

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 16: 1.

(3) Loc.cit.

(4) Roger of Hovden, op.cit., Vol. I, pp. 316-317.

والإسبانية، قاموا بمنح التاج الملكى إلى والده الملك المتوفى، وبصفتها أيضا ابنه الملك عمورى عظيم الشأن بين الصليبيين، الأمر الذى يجعلها أقرب وريث للعرش والأكثر أحقية له، بيد أنهم وجهوا اللوم لها على زواجها من رجل أجنبي<sup>(١)</sup>. وهكذا تركت المدونة لوليم الصورى الإفاضة فى وصف الأمير من كل جوانبه الجسمانية منها والعقلية، ومدى كفايته فى الإدارة والحكم، وتعلمه للغة العربية وقدرته على فهم مشاكل الفرنج المحليين وكيفية حلها<sup>(٢)</sup>.

لم يكن جاي أوف بواتوه سوى ذلك الرجل الذى عرف فى المصادر المعاصرة والمراجع باسم جاي لوزيجنان الذى كان قد حظى بإعجاب سبيللا. ورغم ما أبداه أخوها الملك بلدوين الرابع من تحفظات على زواجهما إلا أنه تم عقد القران بينهما فى الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٨٠ م / ٦ شعبان ٥٧٦هـ. وحصلا على كونتيتى يافا وعسقلان إقطاعا لهما<sup>(٣)</sup>. وأكد مؤرخنا وليم أوف نيوبره وقوع هذه الأحداث حيث قال: "وعندما حصلت الملكة على ملكية الحصون والمدن بمساعدة رجال الداوية والبطريرك هرقل سلمت التاج الملكى إلى زوجها، وحينئذ تذر النبلاء بشكل فاق كل الحسابات، ولم يستطعوا تحمل كل ما حدث، ويقفون مكتوفى الأيدى أمام ارتقاء رجل أجنبي ليس من السلالة الملكية فوق رؤوسهم فى حين أنه لا يزال كما يعتقدون أن هناك فرعا من العائلة الملكية يمكن من خلاله أن يكون

حكم المملكة أكثر لياقة وشرفاً، [لعله يقصد به فرع الملك الأنجليزى هنرى الثانى] وبالفعل كظم العديد منهم غضبهم وجعلهم الخوف أو قل المكر صامتين لمدة من الزمن، ومع ذلك فتظاهروا بطاعته، وتحينوا الفرصة المواتية للتوصل من سيادته عليهم<sup>(٤)</sup>. وكانت هذه الروح التى سادت المملكة قد أدت إلى انقسامات

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 10: 2.

(2) William of Tyre, op.cit., Vol.II, pp.402-403.

(3) Ibid, Vol. II, pp.446-447.

وردت تفاصيل أخرى عن قدوم جاي لوزينجان إلى الشرق بموجب دعوة من أخيه عمورى لوزينجان، وكذلك عن زواج جاي من سبيللا وتوليها يافا وعسقلان.

Ernouf, op.cit., pp.59-60; cf. also Roger of Hovden, op.cit., Vol.II, p.55.

(4) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 16: 1.

خطيرة بانقسام نبلائها إلى حزبين<sup>(١)</sup> ظلاً يعكسان الوضع السياسى المتردى بين الصفوة لبضع سنين. وبذلك يتضح الفارق الواضح بين إيجاز وليم أوف نيوربه وإسهاب وليم الصورى فى تناوليهما للأحداث والشخصيات الصليبية فى الشرق. ومع ذلك فهذا لا يعنى أن الرؤية لم تكن واضحة عند المؤرخ الأول، إنما كان إيجازه يتضمن الدلائل على أنه كان مطلعاً على كثير من الأمور خاصة الأساسية منها التى تجرى بين اللاتين فى الشرق. ويبدو أنه كان يقوم بعمله المكلف به، وهو تدوين تاريخه فى إطار محدد ومرسوم.

ومازال المؤرخ يتتبع التدابير التى اتخذها الملك بلدوين الرابع لحماية للمملكة والأسرة الحاكمة فيها. فقد أشار فى الفصل العاشر الكتاب الثالث السالف الذكر إلى قيام الملك بإيفاد بطريك بيت المقدس فى عام ١١٨٤م/٥٨٠هـ لزيارة إنجلترا ممثلاً للكنيسة اللاتينية فى الشرق بغرض إتمام مهمة طارئة<sup>(٢)</sup>. ويوضح المؤرخ الإنجليزى المعاصر روجر أوف هوفدن طبيعة تلك المهمة بأن البطريرك كان يتأرس وقد ضم كلا من مقدمى طائفة الداوية وطائفة الإسطارية مع الشارة الملكية للملك بلدوين الرابع، ومفاتيح كنيسة

(١) الجدير بالذكر أن ما أشار إليه وليم أوف نيوربه من انقسام بين نبلاء بيت المقدس كان موضع اهتمام جانب من المؤرخين الصليبيين وبالذات وليم الصورى، وعليه اتجهت بعض الدراسات المتخصصة فى تاريخ الحروب الصليبية إلى تبيان ذلك. وخلصت إلى ظهور حزبين فى المملكة فى العقد الأخير من عمرها، ضم الأول نبلاء

أسرة إبليز إضافة إلى الأمير رموند الثالث الوصى على العرش وجانباكيرا من فرسان الإستارية. أما الحزب الثاني فضم أمراء أسرة كورتناى الذين دعموا موقفهم بالسعى لتعيين هرقل بطريكاً للمملكة عام ١١٨٠م/٥٧٦هـ. على حساب وليم الصورى المرشح الأقوى للمنصب، فضلا عن ضم طائفة فرسان الداوية وأمراء لوزينجان ورينوه أوف شاتيون Renauld of Châtillon حاكم ما وراء الأردن (١١٧٧-١١٨٧م/٥٧٣-٥٨٣هـ). انظر:

William of Tyre, op.cit., Vol.II, pp. 449-451, 458-460; Ernoul, op. cit., p. 115; Runciman, S., op.cit., Vol. II, pp. 425, 447-449; Tibble, S., op.cit., pp.51-59; Ncholson, R., op. cit., pp. 56-99.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 10: 1.

وضع أحد المؤرخين الحديثين فى تاريخ الإنجليز عصر الملك هنرى الثانى Henry II تاريخ سفارة هرقل Heraclius إلى الملك فى العام التالى ١١٨٥م. انظر:

Warren, W.L., op. cit., p. 221.

الضريح المقدس وقلعة داود ومدينة القدس بغرض مطالبة الملك هنرى الثانى بضرورة الإسراع إلى الأراضى المقدسة لتولى عرش المملكة بصفته وريثاً له بحكم قرابته بالملك فولك أوف أنجو الملك الأسبق لبيت المقدس (١١٣١-١١٤٣م / ٥٢٥-٥٣٨هـ) لأنه أبو جيوفرى إيرل Geoffrey Earl Anjou والد الملك هنرى. هذا وقد استقبلهم الملك فى بلدة ريدنج Reading فى حفاوة وترحاب. وتعرف منهم على أحوال المملكة الصليبية<sup>(١)</sup>. ومن ثم نلحظ بشكل واضح أن كتابات وليم أوف نيوبره أنت مختصرة فى تلك الحادثة عما ورد عند نظيره الإنجليزى روجر، رغم أن كليهما اتجها إلى إيجاز الحديث عن أحداث الشرق اللاتينى فى الغرب، مما يعطى مؤشرا إلى أن زيارة البطريرك هرقل لم تكن لها وقع خاص عند مؤرخنا إذا ما قيس بما تركته من اهتمام عند نظيره الإنجليزى.

ثم أجملت المدونة الأحداث العصبية التى مرت بها مملكة بيت المقدس إبان المشاكل والاضطرابات التى أعقبت وفاة الملك الصبى بلدوين الخامس عام ١١٨٦م / ٥٨٢هـ. حيث أوردت: "أما ريموند كونت طرابلس فقد أبدى سخطا شديدا على اعتلاء جاي العرش الملكى، مرتكنا على ما لديه من سلطة ودهاء وأعلن رفضه على رؤوس الأشهاد ومعه عدد من قادة الصليبيين عدم الانصياع إلى سيطرة الملك الغريب الذى بادر بتوجيه الهجوم عليه، فاضطر إلى الاستسلام للسلطة الملكية نظرا لعدم كفاية قوته، وحينئذ لجأ إلى صلاح الدين وحظى بسهولة على مساعدته نظرا لأنه كان يسعى إلى إضعاف القوى الصليبية عن

طريق إثارة الخلافات فيما بين أحزابها فى غاية من الدهاء<sup>(٢)</sup>. وقد اتفق عدد من المؤرخين الغربيين والصلبيين مع مؤرخنا فى روايتهم لتلك الأحداث<sup>(٣)</sup>.

(1) Roger of Hovden, op.cit., Vol. II, p. 46.

وهناك من يشير إلى أن سفارة هرقل كانت بهدف إشعال حماسة قادة أوروبا بغرض الدعوة لقيام حملة صليبية كبيرة بدليل أن برنامجها شمل زيارة بابا روما والإمبراطور الألماني وملك فرنسا، فضلا عن الملك الإنجليزي هنرى الثانى. ولمعرفة المزيد عن ذلك راجع:

Macintyre, A.D., Williams, A.D., op.cit., pp.731-732.

هذا وقد تم تصحيح ما أورده المؤرخ روجر أوف هوفدن فى المتن من أن فولك أوف أنجو أخ لجيوفرى والد الملك هنرى، فى حين أنه والده.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 16: 1.

(3) Roger of Hovden, op.cit., Vol. II, pp. 62-63; Ernoul, op.cit., p.134.

وفى الواقع بدت شائعة انضمام ريموند إلى معسكر صلاح الدين قد بلغت من القوة حدا وصل بها إلى مسامع المؤرخين المسلمين المعاصرين. وهذا المعنى أكد عليه المؤرخ ابن الأثير بشكل وثيق الصلة فى استخدام العبارات<sup>(١)</sup>. وهناك من المؤرخين الصليبيين من دعمها ووصل بها حد الحقيقة واتهم ريموند بالخيانة نظرا لأنه حصل على إمدادات عسكرية من صلاح الدين لتؤازره فى نزاعه مع جاي لوزيجنان حول العرش الملكى<sup>(٢)</sup>. وقد عبرت هذه الأخبار البحار، حتى بلغت أذن روجر أوف هوفدن<sup>(٣)</sup> وكذلك وليم أوف نيوبوره، فأدرك خطورة هذا الوضع على المملكة، وأدرك كذلك أن صلاح الدين لديه من الدهاء ما يجعله قادرا على استثمار هذا الموقف فى بث الفرقة بين المعسكر الصليبيى.

وفى المرحلة التالية من مدونة المؤرخ وليم أوف نيوبوره نجد يتناول أحداث ذلك العام الحاسم فى تاريخ الوجود الصليبيى فى الشرق عام ١١٨٧م/٥٨٣هـ. وفى الفصل الخامس عشر من الكتاب الثالث<sup>(٤)</sup> يقر بأنه: " يكتب للتاريخ والأجيال القادمة، لا لمعاصريه حتى تكتمل العبرة ويتعظ من يتعظ". وتناول فى مرارة وحسرة تاريخ مدينة بيت المقدس وفلسطين عبر العصور، والأزمات التى واجهتها بسبب ضلال أهلها، فحق عليهم أن يلقوا عقاب ربهم انتهاء باسترداد تلك الأراضى على عهد البابا أوربان الثانى، كى تقع تحت السيطرة الصليبية مدة سبع وثمانين عام، ثم تناول فى الفصل التالى المنازعات التى أضغفت الديب الصليبيى من الداخل منهيها إياه بعرض الأحداث والكوارث التى أخذت تحيق بالمملكة بعد

لجوء ريموند الثالث إلى صلاح الدين حيث قال: " وقد أعقب ذلك أن دفع صلاح الدين في شهر مايو بقواته من الأتراك إلى الأراضى الصليبية من ناحية طبرية التي كانت آنذاك تحت حكم الملكة [آشيفا أميرة الجليل] وهناك دخلوا فى معركة مع فئة معينة من فرسان الداوية وتمكنوا من ذبح أعداد كبيرة من بنى جلدتنا وأقفلوا عاندين محملين بالغنائم والأسلاب." وما لبث أن اتفق المؤرخان روجر أوف

(١) العماد الأصفهاني: الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق: محمد محمود صبيح، القاهرة، ١٩٦٥م، ص ٦٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١١، ص ٥٢٦-٥٢٧.

(2) Ernoul, op.cit., pp. 141-142.

(3) Roger of Hovden, op.cit., Vol. II, pp. 62-63.

(٤) ويقع تحت عنوان: "أحقية السيادة على أراضى بيت المقدس والتي على أساسها يتم ابتلاع أهلها". انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 15: 1-6.

هوفدن وإرنول مع مؤرخنا فى القول بأنه: "لم تمض سوى فترة قصيرة بعد هذه الهزيمة حتى قام ريموند بتوسيط بعض أصدقائه بينه وبين الملك جاي بغرض عقد الصلح معه<sup>(١)</sup>". ثم انفرد مؤرخنا بتحليل الموقف فذكر: "أن الصلح الذى عقد بينهما ما كان إلا صلحا سوريا؛ نظرا لأن هذا الأمير بل وجميع أمراء الأراضى المقدسة تقريبا كانوا قد دخلوا فى اتفاقية سرية مع صلاح الدين بسبب سخطهم الزائد على الملك، وكان قد قيل أنه بموجب هذه الاتفاقية تعاهدوا على تسليم الملك الصليبي إليه وفى المقابل عاهدهم صلاح الدين على أنه فى حالة تسلمه لم يمنعهم من حق التصرف فى مملكة بيت المقدس. وما حسبى أنهم بذلك إلا أنهم قد تعاهدوا مع الموت واتفقوا مع الجحيم، ظننا منهم أن هذا البلاء القادم لن يصيبهم حينما يأتى لزيارة الآخرين<sup>(٢)</sup>". ونظرا لوقوع هذه المعركة فى وأدى به عيون تدعى كريسون فقد عرفت فى التاريخ بهذا الاسم<sup>(٣)</sup>.

ثمة وقفة قصيرة عند هذه الأحداث وما سبقها من مواقف داخلية فى المملكة؛ إذ تأكدت ملاحظة أن المؤرخ وليم أوف نيوبره قد أولى مرارا طائفة فرسان الداوية باهتمامه الوضح، حتى عن الطائفة المنافسة لها، وهى الإسبتارية، رغم طول باعهم هم أيضا فى الحركة الصليبية، وهذا واضح منذ أن أبرز دور الداوية فى التخطيط السلبى للهجوم على مصر فى عصر الملك عمورى الأول. كما تناول قتالهم مع صلاح الدين بالقرب من بانياس، وفوق أرض الجليل فضلا عن حرص المؤرخ على إبراز دورهم فى توجيه الأمور الداخلية فى

المملكة، خاصة إبان فترات الأزمات التي مرت بها كما هو واضح في مشكلة تعيين الوصي على عرش المملكة، وما ترتب على ذلك من صراع حزبي لعبت الطائفة دورا كبيرا فيه. وهذا الاهتمام سنلاحظه كذلك في الصفحات التالية من خلال إبراز دورهم السياسي والعسكري، هذا كله لم نجد له تفسيراً عند مؤرخنا وليم، إلا

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 16: 2; Roger of Hovden, Vol. II, pp. 64-65; Ernoul, op. cit., p.133.

(2) William of Newburgh, loc.cit.

ويستشهد المؤرخ في هذا الموضوع بالتوراة فيما نصه: "ومحى عهدكم مع الموت ولا يثبت ميثاقكم مع الهاوية.

السوط الجارف إذا عبر تكونون له للدوس". راجع: سفر شعيا ٢٨: ١٨.

(٣) تقع عيون كريسون بين صفورية وكفر قنه في الجليل. ويمكن مراجعة تفاصيل هذه المعركة التي شهدت مذبحاً مروعة بين فرسان الداوية في:

Runciman, S., op.cit., Vol. II, pp. 453-454.

أنه من الممكن أن يستشف عند روجر أوف هوفدن الذي أشار إلى ما أطلقه الملك هنري الثاني من تعهدات بداية من عام ١١٧٢م / ٥٦٧هـ بقيادة حرب صليبية والاتفاق على تقديم مائتي فارس من طائفة الداوية لمدة عام<sup>(١)</sup>. كما نقل لنا نص الخطاب القوي الذي كان مقدم الطائفة تريشوس Terricius لعله توروجا الذي ترأس الداوية من ١١٧٩-١١٨٤م / ٥٧٥-٥٨٠هـ قد أرسله إلى الملك الإنجليزي هنري الثاني لتنفيذ عهده. وبالفعل أرسل هنري أموالاً وهبات وفيرة إلى القدس للصراف منها دفاعاً عن المملكة. وقد أودع نصفها في معبد الرب Templum Domini، ولهذا دلالاته إذا كانت كنيسته مقراً لطائفة الداوية، ويقع بجوارها المكان الذي يضم جثمان قتلة توماس بكت Thomas Becket<sup>(٢)</sup>. وهكذا ارتبط تفصيل الملك هنري للداوية بفكرة التكفير عن ذنب، وعليه يبدو أن وليم أوف نيوبره تأثر بما أحاط الطائفة من هالة سياسية بصفته إنجليزي وربما لمس ذلك داخل قصر الملك نفسه، فاستحوذ عليه الاهتمام بإبراز أخبار هذه الطائفة في الأراضي المقدسة.

وفي الفصل السابع عشر الكتاب الثالث<sup>(٣)</sup> يسرد المؤرخ وقائع التحركات العسكرية بين الطرفين الإسلامي والصليبي عقب معركة عيون كريسون. ومما رواه: "إن ثمانية آلاف فارس أو يزيد حسبما قيل توغلوا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي مخترفين التخوم في ثقة زائدة. وسرعان ما توجهوا إلى مدينة طبرية، وهاجموا قلعتها التي لم يتحصن بها سوى بضعة جنود مع [أشيفا] سيدة الإقطاعية. وعندما بلغ مسامع الملك جاي تلك الأخبار

(1) Roger of Hovden, op.cit., Vol.I, pp.355-357; cf. also Macintyre, A.D., Williams, A.D, op.cit., pp.723, 725.

(2) Roger of Hovden, op.cit., Vol.II, pp.46, 90-91; Macintyre, A.D., Williams, A.D., op.cit., pp.726-732.

ولد توماس بكت في ١١١٨م./٥٦٢هـ. وكان أقرب الأصدقاء إلى هنرى الثانى. وتغير حاله معه بعد تعيينه رئيساً لأساقفة كانتربرى Canterbury عام ١١٦٢م./٥٥٧هـ. وظن أربعة من فرسان الملك أنه يريد قتله فقتلوه في عام ١١٧٠م. وتركت هذه الحادثة أثراً غائراً في نفس الملك، وحاول بسبل عدة التكفير عن ذنبه.  
راجع:

Warren, W.L., op.cit., pp. 104-111; Warner, G.T. & Martin, C.H.K., The Groundwork of British History, Part I (55b.c.-1603), London, pp. 85-89.

(٣) الموضوع تحت عنوان: "حول معركة الجيش المسيحى، وأسر الملك مع الصليب المقدس"،

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 17: 1-3.

قام على الفور بجمع جيش من شتى المواقع كاسرا ما اتبعه الملوك الصليبيون السابقون من تقليد حربى بإبقاء حامية كافية فى مدنهم وقلاعهم حين الدخول فى معركة، وذلك حتى لا يعرضوا المملكة إلى خدعة مزدوجة عن طريق حرمان عظام قلوبهم التى هى المدن والقلاع من المدافعين عنها التى هى فى حاجة إليهم. ورغم أنهم غالباً ما كانوا يهزمون أمام أعدائهم، إلا أنهم لم يبدر منهم أبداً أن عرضوا مملكتهم لخطر الفناء، بيد أن جأى ذلك الملك الذى عينته امرأة كان سبباً فى خراب المملكة الصليبية نظراً لأنه أدار دفعة حكم البلاد فى حمق شديد، ولم تكن الملكة براء من هذا الشر العظيم؛ فقد أمر بتقدم جميع قوات المملكة للقتال كتلة واحدة كما أمر قادة الجيش بارغام المرضى على أن يسيروا جنباً إلى جنب مع الأصحاء إلى ميدان المعركة تحت إشراف منه وكأنهم بذلك يستطيعون إلقاء الرعب فى قلب صلاح الدين بكثرة أعدادهم الأمر الذى لم يجعل منهم سوى ضحايا وليسوا مقاتلين. وهكذا لم يبق فى المدن سوى النذر القليل من الشيوخ مع النساء والأطفال، ومن ثم أضحى مصير كل مملكة بيت المقدس العتيدة معلقاً على نتيجة معركة واحدة<sup>(١)</sup>. وفى المصادر الإسلامية نجد ما يؤكد سوء استعدادات الصليبيين للمعركة القادمة وعجز مدنهم عن الوقوف والتصدي لصلاح الدين<sup>(٢)</sup>.

وفى الحقيقة فإن رؤية مؤرخنا وليم أ نيوبره لأحداث الإعداد لمعركة بيت المقدس الصليبية الفاصلة مع صلاح الدين تعد ثاقبة وموضوعية ولم يضاويه فيها أحد من المؤرخين الغربيين فيما وراء البحار الذين تم الرجوع إلى كتاباتهم. ومن ذلك أنه اتخذ موقف

الناقد لما يجرى من أحداث، والمتمحص للأمر؛ إذ قارن بين حكم الملك جاي وحكم الملوك السابقين عليه وانتهى إلى وصفه بالحمق، كما أنه لم يبرأ الملكة سبيلًا من انعدام حكمة الأوامر التي أطلقها زوجها الملك. الأمر الذي جعل منها شريكا في كل ما يحدث. وخاصة فيما يتعلق بالقرار الخاطيء الخاص بتترك مدن المملكة وقلاعها مكشوفة

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 17: 3.

(٢) ومما ذكره ابن الأثير عن مصير بيروت لاحقاً أنه رغم حصانتها الشديدة إلا أنها لم تصمد؛ لأن المدافعين عنها كانوا من التجار وأصحاب الحرف. ولم يكن من بينهم فرسان، مما أدى إلى استسلامها عند غزوها في أول جمادى الثاني ٥٨٣هـ. / السادس من أغسطس ١١٨٧م. انظر: الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٥٤٠-٥٤٣؛ راجع أيضاً: سبط ابن الجوزي: المصدر السابق، ج ٨، ق ١، ص ٤٣٣.

أمام المسلمين بزعم حشد أكبر عدد من المدافعين عنها بما فيهم الضعفاء لإرهاب صلاح الدين وكيفية أنها هي التي عينته. ومن هذا وذلك نجد المؤرخ يؤكد باستمرار قدرته على تحليل الأحداث التي يتناولها والوصول إلى الأسباب والنتائج الخاصة بها في عمق.

أما عن المعارك في حطين فقد سلطت المدونة عليها بعض الأضواء، لعل في هديها نرى الجديد. فحددت تاريخها بعيد ذكرى الحواريين بطرس ST.Peter وبولس St.Paul الموافق السادس من يوليو ١١٨٧م. / ٢٨ ربيع آخر ٥٨٣هـ. بفارق يومين فقط عن الواقع، وهو يوم الرابع من يوليو. وقد ذكرت المدونة عن أحداثها: "من المعتقد أن قام [ريموند الثالث] كونت طرابلس عن قصد بقيادة الجيش الصليبي إلى منطقة صخرية ليس بها ماء، كما تكثر بها الشعاب الضيقة رغم علمه جيدا بطبيعة تلك المناطق المحلية، فما لبث أن تعرض الجيش للخطر، مما أتاح الفرصة أمام أعدائهم لضرب الحصار عليهم من كل جانب إلى الحد الذي جعل الملك يجازف بالدخول في كل المهالك بغرض التقدم لمقابلة العدو وذلك بناء على نصيحة من قادته النبلاء، فسمح لفرسان الداوية ببدء الهجوم، في حين قام هو بتنظيم جيشه وتقسيمه إلى فرق قتالية تسهلا لدخول المعركة. وفقاً لما لديه من إمكانيات. وفي هجمة شديدة القوة والبسالة اخترق فرسان الداوية صفوف القوات المعادية كثيفة العدد، ووضعهم بين أمرين : إما الفرار وإما الدخول معهم في معركة. وفي هذه اللحظة اتضحت بوادر التواطؤ الشرير لرجالنا مع العدو. بل وخيانتهم الشائنة؛ إذ خالف كونت طرابلس والنبلاء الآخرين مع قواتهم الترتيبات التي كان قد وضعها الملك بأن تخلو عما أنيط إليهم من دور

بتأمين فرسان الداوية فى القتال، مما وضعهم فى موقف خطير. ونتج عن ذلك أنه بينما كان فرسان الداوية يقاوتون المسلمين فى بسالة موشكين على هزيمتهم تمكن أعداؤهم من تطويقهم بشدة فوقعوا بين قتلى وأسرى. بينما سقط جيشنا إلى الأرض مغشياً عليه من الحرارة والعطش لجذب المنطقة وإقارها من الماء<sup>(١)</sup>.

وهكذا اتهم مؤرخنا الأمير ريموند الثالث بالخيانة الدامغة فى هذه المرة أيضاً، شأنه فى ذلك شأن مؤرخ إنجليزى آخر هو روجر أوف هوفدن<sup>(٢)</sup>. بيد أن هناك من الباحثين من يبطل هذا الاتهام ويرى أن ريموند كان يتلقى أوامره من الملك جاي أثناء المعركة، وربما

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 17: 2.

(2) Roger of Hovden, op.cit., Vol. II, p. 66.

من قادة آخرين مثل جيرارد Gerard مقدم الداوية من خلال أوامر الملك. وهذا يتضح فى إصدار الأوامر له بالتوجه من صفورية إلى حطين فطبرية<sup>(١)</sup> وعليه فقد يكون مؤرخنا قد انساق وراء سماع الشائعات التى أحاطت بالجيش الصليبي فى ذلك الوقت فيما يخص هذا الموضوع.

وفى هذا الظرف الحرج الذى أحاق بالقوات الصليبية يذكر المؤرخ صاحب المدونة: "إن ستة من الرجال الصليبيين سيئى السمعة ارتدوا عن دينهم ودخلوا فى الإسلام وانتقلوا إلى معسكر صلاح الدين وأبلغوه بخبايا المشاكل التى يعانى منها الجيش الصليبي. وعليه قرر مهاجمة حشودهم من كل صوب، وقطع أشلائهم جميعاً تقريباً، فى حين لاذ الملك بالفرار فطارده تقي الدين [عمر] بن أخ صلاح الدين وأسره واستولى على صليب الصليبوت منه، وأمسى مجمل الجيش الصليبي بين قتلى وأسرى. بينما تمكن النذر البشير منهم من الهرب ... أما كونت طرابلس فقد قيل أنه هرب ومعاونوه من ساحة المعركة. ولم يأبه المسلمون بتعقبهم<sup>(٢)</sup>". ونجد شرحاً عند روجر أوف هوفدن لبعض المادة التاريخية المذكورة تلك، حيث ذكر أسماء ثلاثة من فرسان الملك من الستة المشار إليهم، وتفاصيل عملية أسره والاستيلاء على صليب الصليبوت<sup>(٣)</sup>. وإذا ما بدا صاحب المدونة مقلاً فى تقديم بعض التفاصيل وكان قد أوردها غيره من المؤرخين الذين عايشوا الظروف نفسها، إلا أن مؤرخنا ظل متميزاً بقدرته على التحليل والنقد ووضع الأمور فى نصابها بشكل أكثر عمقا ودقة. ولم يكتف بسرد

الوقائع كما هو الحال عند غيره. أما حينما كان يوجه الاتهامات فعادة ما ينسبها لقول آخرين ويتعمد تسجيل ذلك.

وعن أسرى يوم حطين يذكر صاحب المدونة: "إن القائد صلاح الدين أمر بعزل من ينتمى منهم للداوية والإسبتارية الذين بقوا على قيد الحياة عن الأسرى الآخرين، ثم أمر بقطع رؤوسهم في حضرته لكي يمتع عينيه بتلك البهجة التي اشتاق إليها طويلاً<sup>(٤)</sup>. بيد أن

(1) Grousset, R., op.cit., Vol.III, p.463.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 17: 2; cf. also Ernoul, op.cit., pp. 162-171.

(3) Roger of Hovden, op.cit., Vol. II, pp. 65-66.

(4) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 17: 3.

وتؤكد الروايات الصليبية الأخرى ما ورد عن مؤرخنا في هذا الصدد وعن ذلك. راجع أيضاً:

Ernoul, op.cit., p. 173; Roger of Hovden, op.cit., Vol. II, p. 66.

ابتهاج الطاغية صلاح الدين كان أكبر بأسر رينو أوف شاتيون Renaud of Chatillo " أمير إقطاعية إقطاعية ما وراء الأردن حيث خصه صلاح الدين بالعقاب، إذ "استجوبه في عنف وعندما تلقى منه إجابات قوية ثابتة ذبحه بيديه، معتقداً أن الكثير من المتعة سوف تضيع إذا قام أى شخص آخر دونه بإراقة هذا الدم الغالي<sup>(١)</sup>". وهنا تتجلى الروح الصليبية التي تسيطر على مؤرخنا ولیم أوف نيويره، فهو من ناحية يظهر صلاح الدين بأنه ذلك القائد الطاغية الذى يتشفى وبيتهج بقتل أعدائه، ومن ناحية أخرى أبدى إعجابه الشديد بشخص رينو حيث وصفه بأنه: "يعد أكثر الرجال المسيحيين تدبنا وهو ذلك الرجل المرموق الجانب لاشتهاره بحسن القيادة فى مجال الحرب، وكذلك فى رجاحة عقله، وهذا جلى فيه منذ إدارته القوية لإمارة أنطاكية، وصولاً إلى تميزه الواضح فى حكم الصليبيين فى الأراضى المتاخمة للجزيرة العربية<sup>(٢)</sup> ولعله من المعروف عند عدد من المؤرخين الحديثين أن هذا القائد يمثل أبرز مثل على النزعة الصليبية الممزوجة بالطيش والتهور والتطرف الدينى<sup>(٣)</sup> ضد المسلمين، بل وضد الصليبيين الذين أطلقوا عليه لقب اللص لما

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 17: 3; cf. also Roger of Hovden, op.cit., Vol.II, p.66.

ويلاحظ أن المؤرخ روجر قد أورد اسم رينو برسم مختلف وهو Raymond de Castiglione.

(2) William of Newburgh, loc.cit.

تؤكد دراسة خصصت لرينو أوف شاتيون ودوره في الحروب الصليبية على أنه ينتمي إلى مدينة شاتيون الفرنسية. جاء إلى الشرق مع حملة الملك لويس السابع المعروفة بالثانية ١١٤٨م./٥٤٣هـ. وتولى حكم إمارة أنطاكية من خلال زواجه من أميرتها الأرملة كونستانس Constance. وساهم في إسقاط عسقلان في ١١٥٣م./٥٤٨هـ. وضم إليه حكم حارم مع أنطاكية في ١١٥٨م./٥٥٣هـ. لكنه وقع أسيراً في يد نور الدين ١١٦٠م./٥٥٥هـ. وخرج من الأسر عام ١١٧٦م./٥٧٢هـ. وبزواجه من ستيفاني أوف ميللي Stéphanie Dé Mili أصبح حاكماً على إقليم شرقي الأردن بداية من عام ١١٧٧م./٥٧٣هـ، راجع:

Schlumberger, Gustave, Renaud de Châtillon, prince d'Antioche, seigneur de la terre d'Outre-Jourdan, 2nd ed., Paris, 1920, bassim.

(3) Grousset, R., op.cit., Vol. II, p. 729.

Mayer, H.E., The Crusader Lordship of Kerak and Shaubak, some preliminary remarks, in: Studies in the History and Archeology of Jordan, Vol.III, Aman, 1987, (pp.197-203), p. 202.

سعيد عاشور: المرجع السابق، ج ١، ص ٥٠٦.

اقترفه من جرائم<sup>(١)</sup> كما لقب بفيل الصليب تشبيهاً له بأبرهة الأشرم والفيل في اعتدائه على بيت الله الحرام في مكة<sup>(٢)</sup>.

مرة أخرى تبدو الروح الصليبية عند صاحب المدونة عندما نعت القائد صلاح الدين بما ليس فيه، وذلك حينما أقدم على جنى ثمار انتصاره الكبير في حطين. وقد خصص المؤرخ فصلاً وهو الفصل الثامن عشر الكتاب الثالث<sup>(٣)</sup> لعرض النتائج المترتبة على الهزيمة في المعسكر الصليبي. وفيه يذكر أنه: "عندما بلغ الجيش المنتصر منتهاه إشباعاً من ذبح الصليبيين، تحول إلى النهب. فبعد المعركة [في حطين] شرعوا في الاستيلاء على الأسلاب الهائلة من تلك الحشود الضخمة الذين أمسوا إما قتلوا أو أسرى. وما لبث أن وصل هذا الطاغية بالغ الدموية بكامل قواته إلى مدينة عكا Ptolemais الزاهرة التي تدعى حالياً صور وتمكنوا من توهم الاستيلاء عليها نظراً لأنها بقيت مكشوفة بلا حامية- كما ذكرت سابقاً- كما أنها كانت تحكم من قبل هؤلاء الذين لا يصلحون للحرب بسبب أعمارهم أو نوعهم، وذلك بموجب أوامر عليا حمقاء. ونظراً لأن صلاح الدين قد أصيب بالتحمة من ذبح الصليبيين. سمح للأعداد التي وجدها منهم داخل هذه المدينة بالرحيل دون أن يعترضهم بأذى. انطلاقاً من شعور بالرحمة غير مألوف بالنسبة له، وبعد هذا الفتح استدار إلى المدن والقلاع الأخرى، و نجح بعد حملة حربية قصيرة الأمد لم يسفك فيها دماء، نجح في اخضاع

كل مراكز الثقل داخل مملكة بيت المقدس؛ إذ كان قد ترتب على معركة واحدة أن قضى على كل حاميات المدن والقلاع. الأمر الذى لم يجد الطاغية

(١) كان رينو قد أرسل في عام ١١٥٥م./٥٥٥٠هـ. بعض السفن إلى جزيرة قبرص الخاضعة للبيزنطيين، فتمكنت من الإغارة عليها ونهبها وإنزال الأذى بأهلها، مما أثار استنكار المسيحيين عامة ولقبوه باللص. راجع:

William of Tyre, Vol.II, pp.253-254; Michel le Syrien, op.cit., Vol.III, p.315.

انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، القاهرة ١٩٥٧م، ص ١٢.

(2) Hamitton, B., The Elephant of Christ, Reynald of Chatillon, ed. In Monastic Reform Catharism and the Crusade- 900-1300, Varior.Repr. London, 1979, pp.(97-108), (99-100).

(٣) وجاء تحت عنوان: "كيف استولى صلاح الدين على أرض الميعاد والمدينة المقدسة"،

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 18: 1-2.

معه أى صعوبة فى الاستيلاء على أعتى حصون الصليبيين، التى كان يكفى لإسقاطها مجرد منع المؤن الغذائية عنها. اللهم ماعدا مدينة بيت المقدس ذاتها وصور وعسقلان<sup>(١)</sup>.

ولم يسجل مؤرخنا أسماء البلاد والبقاع التى استردها صلاح الدين فى هذه المرحلة بينما اهتم روجر أوف هوفدن بتسجيل معظمها<sup>(٢)</sup>. كما وقع مؤرخنا فى لبس حينما اعتبر عكا هى ذاتها مدينة صور<sup>(٣)</sup> إذ أنه لم يميز جيدا بين المدينتين وليس لديه خلط فيما بينهما إلا فى هذا الموضع. ويتأكد ذلك من أنه أشار فى موضع آخر أن بطلمية هى عكا، كما ميز بين المدينتين فى تناوله لأحداث لاحقة أخرى.

ووفقا لما ذكره المؤرخ النيوبرهى فقد بقيت ثلاث مدن فقط خارج سيطرة صلاح الدين داخل المملكة، وكما عددها فهى: بيت المقدس وعسقلان وصور. وحرى بنا أن نبادر بتقديم المادة التاريخية التى وردت عند المؤرخ عن إسقاط عسقلان، رغم أنه أتى بها بعد سرده لأحداث سقوط بيت المقدس حفاظا على السياق التاريخى. ولعل تفسير وقوعه فى ذلك الزلزل يكمن فى أن بيت المقدس طغت بأهميتها وبالأحداث المتعلقة بها على غيرها من المدن. فذكر: "إن عسقلان لم تسلم من يد صلاح الدين، شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن الفلسطينية، وهى تعد مدينة عظيمة فر إليها الصليبيون بعد معركة حطين لقوة تحصيناتها. كما كانت تزخر بكميات هائلة من السلاح والمؤن التى أصبح لا جدوى لها، وكان الصليبيون قد أظهروا داخلها مقاومة شديدة فى الوقت الذى عرض فيه

(1) Ibid, bk.3, Ch. 18: 1.

أفاضت بعض المصادر الإسلامية وأيضاً الأوروبية في الحديث عن الفتوحات الصلاحية فترة ما قبل فتح القدس وما بعدها. ولعل عرض المؤرخ ابن واصل مثلاً يقدم حصراً شاملاً ودقيقاً للفتوحات الأولى. فانطلاقاً من عكا ضم صلاح الدين مدن وقلاع الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا وشقيف أرنون والغولة وجبل الطور وبيروت. وقام قاداته بالاستيلاء على يأوفا وسبسطية وتبين التي لقيت دعماً منه في إسقاط قلعتها، بينما استسلمت مدن مثل صيدا وجبيل. وفي الجنوب تم الاستيلاء على الرملة وبيننا والداروم وغزة والنطرون وبيت جبرين، ثم الخليل وعسقلان، ذلك فضلاً عما سيلى القدس من فتوحات، راجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٢-٢٠٩.

(2) Roger of Hovden, op.cit., Vol.II, pp.66-67.

(3) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 18, Ch. 25.

الملك جاي أن يتنازل عنها لصالح الدين مقابل إطلاق سراحه شخصياً<sup>(١)</sup>. والواضح أن القائد كان حريصاً على إسقاط هذه المدينة بالذات في ذلك الوقت؛ لأنها تقع "على طريق الديار المصرية فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل"<sup>(٢)</sup> غير أن صليبي عسقلان لم يستجيبوا لنداء الملك بالتسليم، واستمروا في الصمود أمام هجوم صلاح الدين، حتى خارت قواهم ونفذت مؤنهم فطلبوا الأمان. فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وممتلكاتهم ودخل المدينة في الخامس من سبتمبر ١١٨٧ م / الأول من رجب ٥٨٣ هـ، بينما رحل سكانها إلى مصر<sup>(٣)</sup> ومنها إلى أوروبا.

أما مدينة بيت المقدس فقد حظيت ببعض التفصيل في رواية أحداث سقوطها. إذ وضع المؤرخ تاريخ ذلك في يوم عيد القديس ميخائيل الموافق ٢٩ من سبتمبر. وبعد واقعة حطين بما يقرب من ثلاثة أشهر، وهو تاريخ يسبق يوم الفتح الذي أجمع عليه المؤرخون بثلاثة أيام<sup>(٤)</sup> وفي ذلك يقول: "وامتد نفس هذا البلاء الناجم عن السخط الإلهي أيضاً إلى المدينة المقدسة؛ إذ أرغم صلاح الدين البطيرك والأهالي الذين تسبب الخوف في أصابتهم بالإحباط. فاستسلموا له؛ وحينئذ أبقى على حياتهم وحرياتهم سعياً منه فقط لأن يكتسب شرف التصدي بالرحمة، لكنه قام بطردهم من المدينة بعد أن جردهم مما لديهم من سلاح وأموال ودخلها في أبهة عظيمة<sup>(٥)</sup>". وهكذا تكرر من المؤرخ أنه حينما يضطر إلى ذكر خصال

صلاح الدين الكريمة يقرنها دائماً برغبته في الظهور والخيلاء وأنها بغرض اكتساب السمعة الطيبة فقط. وحقيقة فإن المجال لا يتسع للإفاضة في مدى

(1) Ibid, bk.3, Ch. 18: 2.

(٢) ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٩.

(3) Ernoul, op. cit., pp. 185, 231-232.

انظر أيضا ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص ٥٤٧.

(4) William of Newburgh, op. cit., bk.3, Ch. 18: 1.

ابن شداد: المصدر السابق، ص ٨١-٨٢؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٢؛ ابن الأثير: المصدر

السابق، ج ١١، ص ٥٤٩؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(5) Loc.cit.

الكرم والسماحة التي عامل صلاح الدين بها رجال الدين والأهالي إبان الفتح<sup>(١)</sup> وهو أمر معروف متأصل فيه أقره المؤرخ نفسه بشكل أو بآخر.

ثم يستأنف المؤرخ حديثه قائلاً: "عندما دخل صلاح الدين القدس قام بتدنيس الكنائس التي وضع يده عليها، وتعامل معها باعتبارها أسلاب، كما دمر الصليب الذي يمثل راية الرب بعد أن حقره وسخر منه، وأمر بتطهير معبد الرب [الذي هو في حقيقة الأمر المسجد الأقصى] بماء الورد وبكل توقيير، وذلك كما لو كان المسيحيون قد دنسوه فلم يكن هذا المبنى في يوم ما عرضة للإيذاء ولا حتى من قبل المسلمين أنفسهم، ثم أحيا فيه الشعائر المتدنية، في حين أنه لم يبد القدر ذاته من الاهتمام بكنيسة الضريح المقدس حيث استولى على جميع المقتنيات الذهبية والفضية بداخلها، كما أنه استصدر أمرا بمنح المسيحيين السريان حق الحماية والإشراف على الكنيسة بصفتهم السكان الأصليين لهذه الأرض، كذلك أصدر مرسوما يحرم على أي أجنبي ألا يقترب من القبر المقدس بدون توقيير<sup>(٢)</sup>. " بذلك اهتمت المدونة بإبراز سياسة صلاح الدين تجاه الأماكن المقدسة داخل القدس عند فتحها. ولكن غلب عليها الغبن في تقييمها، إذ زعمت تدنيس المسلمين للكنائس وأنكرت إيذاء الصليبيين للمسجد الأقصى وأقرت احترام المسلمين له وتطهيره، بينما أقرت حرص صلاح الدين على إعادة الأمور في القدس إلى نصابها قبل الغزو الصليبي، في حين نجد أن الصليبيين استخدموا أبنية المسجد الأقصى في عدة أغراض تراوحت بين جعله مقر الملك الصليبي في

الفترة الأولى من تأسيس المملكة، وكى يكون سكنا للفرسان اللاتين من الداوية. فمارسوا فيه فنون الحرب والقتال، وجعلوا فيه مستودعا لذخائرهم علاوة على استخدام جانب منه كنيسة لهم، كما جعلوا من أسفل المبنى حظائر لخيولهم وفقا للتراث المسيحي أن النبي سليمان عليه السلام كان قد اتخذ من الجزء الجنوبي الشرقي منه

(١) يكتفى بالإشارة إلى ما ورد في جانب من المصادر الإسلامية وإحدى الدراسات الحديثة لأحد الباحثين الأوروبيين عن نجم صلاح الدين الكريم في فتحه للقدس. انظر: أبو شامة، المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٦؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٠٦-٢٠٧،

Richard, J., About an account of the battle of Hattin, ed. In Speculum XXVII, 1952, referring to the Frankish mercenaries in oriental Moslem states, Cambridge, 1976, p. 170.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 18: 1.

اصطبل<sup>(١)</sup>. ومصدقا لذلك فإن أبا اليمن العليمي مؤرخ القدس والخليل المتوفى في أوائل القرن السادس عشر الميلادي يقول: "ولما تسلم السلطان (صلاح الدين) القدس أمر بإظهار المحراب (داخل الأقصى) وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه هوياء، وقيل اتخذوه مستراحا. وبنوا غربي القبلة دارا وسيدة وكنيسة فهدم ما قدام المحراب من الأبنية ونصب المنبر وأظهر المحراب ونقض ما أحدثوه"<sup>(٢)</sup>. وإضافة لذلك فإن ابن الأثير يقول عن صلاح الدين أنه أمر "بعمارة المسجد الأقصى واستنفاذ الوسع في تحسينه... فشرعوا في عمارته ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور... وخلعوا الصليب، كما قاموا بإعادة الأبنية إلى حالها القديم... وتطهير المسجد والصخرة من الأقدار والأنجاس...". كما تم ترتيب المسجد وتنظيم إدارته " فعاد الإسلام هناك غضا طريا"<sup>(٣)</sup>، وتم غسل قبة الصخرة بماء الورد<sup>(٤)</sup>. ولعلنا نجد جانبا من تلك العبارات وقد اتفق مع ما ورد عند المؤرخ النيوبرهي بشأن القدس.

أرجع المؤرخ صاحب المدونة مواقف صلاح الدين الكريمة تلك إلى "إما أنه كان من منطلق الإنسانية، أم أنه كان لأجل مجده الشخصي. وفضلا عما سبق؛ أظهر الرحمة بالمرضى الراقدين في مستشفى القديس يوحنا المشهورة. وأمر بأن يجب أن توجه إليهم كل العناية المطلوبة حتى يتوفوا أو يتعافوا. ثم عهد بهذا الواجب إلى بعض الرهبان من دير المستشفى على أن يقوموا بواجبهم هذا في حرية وأمن كاملين<sup>(٥)</sup>" الواضح أنه هو ذلك المبنى الذي اتخذته طائفة الفرسان الإسبتارية مقرا لها. وكان قد أنشأ جماعة من الأماليين في

عام ١٠٧٠ م / ٤٦٢ هـ لينزل به الحجاج المسيحيون الفقراء. وقام على خدمتهم رهبان تحولوا إلى طائفة رهبانية مقاتلة فى ظل الوجود الصليبي. وفى العقد

- (١) وللاستزادة عن ذلك الموضوع. راجع: على أحمد محمد السيد: أهم التطورات فى أبنية القدس الدينية منذ الغزو الصليبي حتى استرداد المسلمين لها (١٠٩٩-١١٨٧ م./٤٩٢-٥٨٣ هـ)، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب- جامعة المنوفية، أغسطس ١٩٩٥ م.، ص ٧٨.
- (٢) أبو اليمن العلمي (ت ٩٢٧ هـ./١٥٢٢ م.). الأناجى الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج ٢، بيروت ١٩٧٣ م.، ج ١، ص ٢٩٣.
- (٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص ٥٥١-٥٥٢.
- (٤) عماد الدين الأصفهاني: الفتح القسى، ص ١٣٧.

Roger of Hovden, op.cit., Vol.II, p.90.

(5) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 18: 2.

السابع من القرن الثانى عشر الميلادى؛ لوحظ وجود مستشفيات للجماعة بلغ اتساعها معا لإيواء أربعمائة من فرسان الإسبتارية عدا المرضى الذين يجهزون بكل ما يلزمهم فى الحياة وبعد الممات. وفى العقد التالى وصف المبنى بأنه يضم إضافة إلى المستشفى كنيسة عرفت باسم كنيسة يوحنا المعمدان. وتم تجهيزه بالحجرات والأسرة حتى بلغ عددها ما يزيد عن الألف<sup>(١)</sup>. وأيا كان الأمر فقد قدم المؤرخ الأدلة الدامغة على حسن تعامل صلاح الدين مع الطوائف المخالفة لدينه غير مرة، وعلى مضض منه برزت صورة هذا القائد المسلم مضيئة.

ومن الإجراءات التى اتخذت بالقدس وأشارت لها المدونة: "أنه بمجرد أن سقطت فى يد صلاح الدين واستقر له الأمر فيها، قام بطرد سكانها الصليبيين، ثم تولى تقسيمها إلى مقاطعات قام بتوزيعها بين المقربين له.<sup>(٢)</sup>" وفى الواقع فإن ما اتخذته القائد من إجراءات فى القدس بعد الفتح على هذا النحو الذى ذكره المؤرخ وليم لا يختلف كثيرا عن الواقع كما ورد عند المؤرخين المعاصرين، خاصة المسلمين منهم، مما يضى على مؤرخنا المصادقية والموضوعية التى عهدناها فيه برغم التطاول والإيماءات التى أصدرها غير مرة، وقصد منها التشكيك فى أن ما أقدم عليه صلاح الدين من أعمال خيرية ومعاملة طيبة للطوائف المخالفة لدينه كان من منطلق الدعاية الشخصية لنفسه.

وفيما يتعلق بمدينة صور، فقد ذكر المؤرخ عنها أنها " المدينة الوحيدة التي نجت من السقوط في يد الأعداء وهي مدينة عريقة طبقت الآفاق بشهرتها، وقاومت على مر الزمان أعظم الهجمات، إذ يذكر تاريخها أنها قد أجهدت القائد البابلي شديد البأس نبوخذ

(١) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد، سنة ١٩٤٥م، ص ٩٨-٩٩. راجع أيضا:

Theoderick, Description of the Holy Places 1172 a.d., trans. by Aubrey Stewart, in Palestine Pilgrim's Text Society, Vol. V, London, 1894, p.22; William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 242-245.

(2) Idem.

نصر [٦٠٥-٥٦٢ ق.م.]. كما قاومت القائد الهمام الإسكندر الأكبر<sup>(١)</sup>. وسببت له كثير من المشاكل وفي هذه المرحلة أيضا كان لهذه المدينة أن تقع في يد صلاح الدين بالسهولة التي سقطت بها بقية المدن إلا أن حكمة الله في ألا يذرى بكل شئ خاص ببقايا الصليبيين...، وذلك حتى يجدوا لأنفسهم وللقادمين إليهم مأوى كى يلجأوا إليه، فحفظ لهم هذه المدينة<sup>(٢)</sup>. " حيث اضطر صلاح الدين إلى تركها مؤقتا، وأثر الانصراف إلى غيرها<sup>(٣)</sup> وحينئذ انكب أميرها كونراد أوف مونتيفرات Conrad of Montferrat على تحصينها والدفاع عنها. وتوافرت أعداد كبيرة من الأوروبيين من دول شتى فيما وراء البحر لتتضم إلى الجيش الصليبي في صور. ولذا فقد أخذ موقفهم يتحول من الدفاع إلى الهجوم ضد المسلمين القريبين خارج المدينة. وراح المؤرخ يروى على مدى صفحات ما وقع من أحداث في المعسكرين الصليبي والإسلامي حول المدينة تمهيدا لوصول الحملة الصليبية الثالثة<sup>(٤)</sup>.

(١) يضيف المؤرخ في موضع آخر عن صور وصفا لها، فيشير إلى وضعها كجزيرة ربطها الإسكندر الأكبر باليابس. ولذا فقد أحاطت بها المياه من كل جانب تقريبا. كما أن ميناءها يتمتع بالأمان التام، مما جعلها من أحصن المدن. راجع ما ورد في الفصل العشرين الكتاب الثالث من المدونة، الموضوع تحت عنوان: "حصار صور وعودة الملك من الأسر".

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 20: 1-2.

حكم نبوخذ نصر بلاد ما بين النهرين وسوريا، واستأنف الصراع على فلسطين مع فرعون مصر، وهاجمها

عدة مرات، وسى كثير من سكانها وهاجم مدن الساحل الفينيقي ومنها صور. ويرجع له الفضل فى تشييد حدائق بابل المعلقة. وقد وردت أخباره كثيرا فى الكتاب المقدس. راجع: بطرس عبد الملك وآخرون: المرجع السابق، مادة: نبوخذ نصر.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 18: 2, Ch. 20: 1.

(٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٤) انظر ما أورده المؤرخ وليم أوف نيوبره عن دور الماركيز كونراد أوف مونتيفرات فى تكتيل جهود الصليبيين لحماية المدينة من أخطار صلاح الدين فى الفصلين التاسع عشر والعشرين من الكتاب الثالث من المدونة:

William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 20: 1.

وفضلاً عما تناوله وليم أوف نيوبره من تأريخ لمملكة بيت المقدس اللاتينية ومدنها الرئيسية بعد واقعة حطين نجد لديه بعض الاهتمام بالتأريخ أيضا لجانب من الكيانات الصليبية الأخرى فى الشام؛ فى إمارة طرابلس تعرض إلى السياسة التى اتبعتها صلاح الدين حيال تلك الإمارة حيث حظت فى الوقت ذاته فى نظره بوضعية خاصة؛ فى حين سجل أنه عمد إلى تدمير مملكة بيت المقدس نجده وقد عفا عن طرابلس، ورحمها من ضرباته بناء على عهد بينه وبين أميرها. ولم ينس المؤرخ أن يسجل شيئا عن مصير ريموند أمير طرابلس. فذكر أن الأمير ومعه رينالد Reginald سيد صيدا وسط قلة من أتباعها دخلا إلى مدينة صور أثناء انشغال أهلها بتحسينها " كما لو كانا يطلبان اللجوء وربما بغرض الدفاع عنها"، فى حين كانت النية مبيتة على تأليب الأهالى ضد حاكمها كونراد أوف مونتيفرات أو الاستيلاء على القلعة. ولكن سرعان ما انكشف أمرهما، وحينئذ أدرك ريموند عاقبة خيانتة، وندم على ما اقترفه من آثام. فعاد إلى طرابلس حزينا وفى حالة أشبه بالجنون ومات كمدا. كما اختار أهل المدينة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية سيذا عليهم. وبينما يذكر مؤرخنا ذلك إلا أن دراسة متخصصة خلصت إلى أن طرابلس قد آلت إلى ريموند الابن الأكبر لبوهيموند الثالث بموجب وصية ريموند قبل وفاته. وترجح أن تاريخ الوفاة يقع فى شهر رجب ٥٨٣هـ. الممتد بين ٦ سبتمبر و ٥ أكتوبر ١١٨٧م مستندة إلى المؤرخ المعاصر ابن العديم<sup>(١)</sup>.

وخارج مملكة بيت المقدس أيضا، حيث إمارة أنطاكية ذكر المؤرخ أن صلاح الدين تمادى فيما خطط له. فتحول سريعا صوب أراضي أنطاكية، وتمكن من تقويض سلطان الأمير بوهيموند الثالث فى تلك الجهات "إلى حد أنه بعد استيلائه على اللاذقية ومدن الإمارة الأخرى لم يترك له أى ممتلكات تقريبا خارج أسوار أنطاكية"<sup>(٢)</sup>. وتؤكد الأحداث هذا الأمر،

فمن الثابت أن صلاح الدين قام باختراق حدود إمارة أنطاكية غربى نهر العاصى، وتمكن من إسقاط عدة مدن وقلاع مهمة خلال صيف عام ١١٨٨م/٥٨٤هـ.

(1) Idem.

ابن العدم: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٤؛ أما الدراسة المتخصصة: راجع: حسين عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، ص ١٦٦، ٢١٠-٢١١.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 20: 2.

كان من أبرزها جبله وحصن صهيون وأفامية. ووصل إلى جسر الحديد خارج أسوار أنطاكية من جهة الشمال. كما استسلمت حامية فرسان الداوية فى قلعتى دريساك وبغراس. ولم يبق إلا فتح أنطاكية نفسها التى عزم صلاح الدين على مهاجمتها. إلا أن بوهيموند راسله طالبا عقد الهدنة معه على أن يطلق كل أسرى المسلمين فى أنطاكية<sup>(١)</sup>. ومن ثم ظل مصير الإمارة الصليبية كما صوره مؤرخنا مدينة بلا عمق يحميها يتمثل فى الأراضى التابعة لها. وهكذا فإن مؤرخنا وليم يقدم فيما يخص التأريخ للمدن الشامية مادة تاريخية إضافية جدية بأن توضع فى الاعتبار عند تقييم ودراسة الحروب الصليبية حيث إمارتا طرابلس وأنطاكية الصليبيتين وإن كان الباحث قد عمد إلى عرضها بإيجاز لتخطيها الحدود الزمنية المحددة للدراسة.

وبين طيات كتابات المؤرخ التى تغلب عليها الجوانب السياسية نلمس فيها أحيانا ما يمس الجانب الاجتماعى. ومما يخص الكيان الصليبي فى الشرق نجد المؤرخ فى الفصل الخامس عشر بالكتاب الثالث (ولعله يعد أكثر فصول المدونة تحليلا وتقييما لحال الصليبيين هناك) يتعرض لإحدى الظواهر المهمة، وفيها عمد إلى تقديم رؤيته الخاصة لمجتمع الصليبيين فى بلاد الشام معتبرا أن ما آلت إليه أحوالهم من تردى كان السبب فى انهيار سلطانهم. حيث ذكر أن الأرض المقدسة لفظتهم وطردتهم بعد مرور ما يزيد عن السبع وثمانين عاما من إقامتهم فيها كما فعلت مع الأمم العاصية السابقة. وأرجع سبب ذلك إلى ما اقترفوه من انتهاكات فى حق المسيحية. وحدد فى اتهامه هذا صراحة أولئك الصليبيين الذين يعرفون باسم البولانيين Pullani معرفا إياهم بأنهم: "هم المسيحيون الذين سكنوا فى الأصل الأراضى المقدسة بعد الغزو وما لبثوا أن تأثروا بالمسلمين كثيرا بحكم الاحتكاك، وقربهم منهم. ولذا لم يختلفوا كثيرا عنهم فى العقيدة أو الأخلاقيات، وظهروا على أنهم نوع من الكائنات المحايدة بين المسيحيين والمسلمين من السكان". الأمر الذى أدى فى

نظر المؤرخ إلى تدينس أرض الله. أما فيما بعد - أي وقت تدوين المؤرخ لهذه الأسطر - فقد صار المسيحيون أكثر إخلاصا، بيد أنهم من أمم شتى فبدوا "معزولين ومترفين ومسرفين ومقلدين وممثلين... فضلا عما شابهم من عادات وتصرفات منكرة"<sup>(٢)</sup>. على هذا يبدو صاحب المدونة مؤرخا موضوعيا وناقدا للمجتمع الصليبي. حيث وضع يده

(١) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٨٦-٩٤؛ العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٢٣٠-٢٣١، ٢٥٨-٢٦٢؛ راجع أيضا: حسين عطية، المرجع السابق، ص ٢١٣-٢٢٠.

(2) William of Newburgh, op.cit., bk.3, Ch. 15: 2-4.

على جانب من المؤثرات والمتغيرات فيه. كما بدت رؤيته متشائمة تجاه هذا المجتمع، سواء أقبل حطين أم بعد ذلك. فإذا ما كان البولانيون في نظره قد تسببوا في الانهيار الاجتماعي فإن حال الصليبيين بتشتتهم وتفسخ أخلاقهم وتعدد انتماؤاتهم لا يجعلهم أحسن حالا من سابقهم الرومان. وما من شك أن مؤرخنا على هذا النحو قدم نموذجا رائعا لأسلوب تفكير الأوروبيين تجاه قضية الصليبيين وإخوانهم اللاتين في الشرق أواخر القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري. كما أكد على أنه ناقد اجتماعي وتاريخي جيد قادر على تسجيل الظواهر الاجتماعية والنفاذ إلى أغوارها ومسبباتها وما يترتب عليها من نتائج.

أما فيما يخص المجتمع الإسلامي عصر الحروب الصليبية فقد أدلى المؤرخ فيه بدلوه أيضا؛ ففي الفصل الرابع والعشرين من الكتاب الرابع<sup>(١)</sup> يتحدث عن ظاهرة أثرت وألقت بظلالها عسكريا وسياسيا على منطقة الشرق الأدنى بما حوت من كيانات إسلامية وصليبية حيث روى: "مما يذكر أنه قد كان هناك في الشرق عنصر بشري ما خاضع تحت سطوة مسلم قوى النفوذ يدعونه الرجل الشيخ، وبلغ خضوعهم له حدا أنه تمكن من إقناعهم بالتضحية بأرواحهم. ومن ثم فقد نجح هذا الرجل في إغوائهم بأمكر الأساليب والوعود الزائفة حتى اعتبروه بمثابة رسول يوحى إليه؛ واعتقدوا أنهم سيحصلون ثواب ذلك في جنة النعيم في الآخرة إذا أطاعوا أوامره في الدنيا. وحينما كان هذا الرجل يستشعر وقوع هجوم من أحد القادة الأقوياء ضده أو مجرد توجسه من التعرض لهذا الخطر، كان على الفور يرسل قتله ممن تنطبق عليهم المواصفات السابقة بعد تحريضهم على التخلص منه حتى يفسح أمامه الطريق بصفته عدوا. ولم يكن لدى هؤلاء الأشخاص أي مأرب أو طموح سوى تحين الفرصة المواتية لتنفيذ الأوامر على أكمل وجه، فقد كانوا يعرضون أنفسهم للخطر، بل والموت أثناء قيامهم بمهمة اغتيال الشخصيات المحددة لهم. وكانوا يتبارون إلى إتمام ذلك في بهجة كما لو كانوا يسارعون إلى مأدبة. نظرا لأنهم كثيرا ما تأخذهم الجرأة عندما لا يكونون تحت

المراقبة الدقيقة فيبادرون بالنفاذ من بين الحراس للقضاء على شخصية مرموقة، فقد احتاط الأمراء المسلمون بصفة خاصة منهم بأن احاطوا أنفسهم بحراسة شديدة واعية، ولم يسمحوا إلا لأقرب المقربين إليهم من الدنو

(١) الموضوع تحت عنوان: "عن اغتيال الماركيز كونراد". انظر:

William of Newburgh, op.cit., bk.4, Ch. 24: 1-3.

منهم إلا وهم في وسط حراسهم الخاصين. أما ملوكهم فلم يفرضوا على الرجل الشيخ الجزية، كما لم يجبروه على الطاعة لهم. إذ كانوا حريصين على ألا يعكروا صفوه بأى حال من الأحوال<sup>(١)</sup>. ولعل الرجل الشيخ هذا هو لقب كل من يتولى قيادتهم وكان اسم أولهم حسن الصباح زعيم طائفة الإسماعيلية الحشيشية<sup>(٢)</sup>. ولما كان تأثيرهم عظيماً في تلك الفترة اهتمت المدونة بذكرهم، كما استفاض المعاصر وليم الصوري بذكر جانب من أخبارهم ملقبا مقدمهم شيخ الجبل<sup>(٣)</sup>.

أما عن الأسلوب الذى اتبعه القادة الصليبيون فى تعاملهم مع طائفة الحشيشية فتوضحه المدونة على النحو الآتى: "وخلال فترة قوة الصليبيين فى الشرق لم يجرؤ سوى رجال طائفة الداوية وحدهم - لما عرف عنهم من تقان إلى حد الموت فى الهجوم - التصدى لهذا الرجل [وكان آنذاك يدعى سنان] حتى أجبروه على إبرام معاهدة بالخضوع لهم". ويفسر المؤرخ نجاح الداوية المذكور بما لديهم من حسن تنظيم. فيذكر أنه: "إذا ما اغتيل مقدمهم فهذا لم يترك أثراً كبيراً عليهم، إذ سرعان ما ينصبون من يحل محله وسوف يثورون أكثر وبانتقام أشد لذلك الذى فقدوه"<sup>(٤)</sup>. ويضيف المؤرخ فى استفاضة أنه

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.4, Ch. 24: 2.

(٢) انشق إسماعيلية الشام بعد موت الخليفة المستنصر الفاطمى (ت ١٠٩٤م/٤٨٧هـ) عن الفاطميين، ونادوا بإمامة ابنه نزار وبطلان إمامة ابنه الآخر المستعلى الذى ظل أتباعه فى مصر ينتمون إليه، وقد عرف فرع الشام باسم الحشيشية أيضاً، ونجح الحشاشون فى تأسيس مملكة لهم حول مجموعة من القلاع عرفت بقلاع الدعوة، وذلك أواخر القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى مستغلين الفوضى التى سادت منطقة الشرق الأدنى الإسلامى والصراعات بين القوى الفاطمية والسلجوقية والصليبية. راجع: جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام، الطبعة الثالثة، اسكندرية، ١٩٧١م، ص ٢٢٦؛ وقد بلغت هذه الطائفة درجة كبيرة من الانحلال الخلقي حتى ذاق الصليبيون والمسلمون جميعاً من جرائمهم الشئىء الكثير. وكان مقدمهم بداية من عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ. هو راشد الدين سنان البصرى، ولقبه الشيخ، وهو الذى نظم تلك الهيئة وأعطاهها طابعها المفرغ. انظر: أسامة زكى زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر

الحروب الصليبية (القرن الثاني عشر الميلادى/السادس الهجرى)، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ٤٤-١٥٥، ٥٧-١٦٨.

(3) William of Tyre, Vol.II, pp.389-393.

(4) William of Newburgh, loc.cit.

من الثابت أن هناك معاهدة كانت قد وقعت بالفعل بين الحشيشية والداوية وما يؤكد أنه أنهم طلبوا من الملك الصليبي عمورى الأول في عام ١١٧٣م. إسقاط الضريبة التي فرضتها عليهم الداوية بموجب المعاهدة وقد بلغت ألفى دينار. انظر:

William of Tyre, op.cit., Vol. II, pp. 391-392.

على الرغم من عدم التعرف بشكل واثق على الجهة التي اغتالت الأمير كونراد أوف مونتيفرات بالتحديد إلا أنه يعتقد في أن الحشيشية هم الذين نفذوا تلك الجريمة ربما بإيعاز من جهات أخرى. وهذا الأمر لم ينجلى حتى حينه (أى حتى وقت تسجيل المدونة)؛ نظرا لأنهم أثناء التحقيق معهم أظهروا عدم المبالاة لما ينتظرهم من مصير، ولم يكن الموت رادعهم للإقرار بالحقيقة<sup>(١)</sup>.

وكما عثرنا في الفصل الرابع عشر من الكتاب الخامس وهو الكتاب الأخير للمؤرخ وليم أوف نيوبره على ما كان جديرا بأن نستهل به وقائع هذه الدراسة؛ فقد عثرنا فيه أيضا على ما نجده مناسبا كى يوضع في خواتيمها نظرا لأن الأسطر الآتية تتعلق باقتصاديات المجتمع الصليبي، وفيها يقول المؤرخ: "أما صلاح الدين الذى كان بمثابة المطرقة لكل من هو مسيحي منذ بضع سنوات خلت، فعندما أخذ في الاستعلام عن حالة البحارة من قومنا [الأوروبيين] وسمع بأنهم في العادة يأكلون أنواعا عدة من اللحوم في وجبة العشاء، قال: إن هؤلاء الناس ليسوا بجديرين بأن يحظوا بالأرض المقدسة نظرا لأنه حينما وقف على حقيقة رفاهية شعبنا فقد كان من شأنه إثارة حفيظة المسلمين ضدنا إذ كانوا هم أصحاب السبق في قوة إقتصادهم، الأمر الذى جعلهم يقولون: لعن الله هؤلاء الرجال المنعمين الذين يجب القضاء عليهم إذ ليس هناك رجاء في هدايتهم<sup>(٢)</sup>". ولهذا العبارة مغزاها فهي تبين إلى أى حد تأثر المجتمع الأوروبى ايجابيا باحتكاكهم بالمسلمين حتى اعترف مؤرخنا بأن المسلمين هم أصحاب الفضل في انتعاشهم اقتصاديا حتى ارتفع مستواهم المعيشى لوجودهم في الشرق على هذا النحو. وصاروا هدفا أمام المسلمين للقضاء عليهم.

وفى الواقع يعد تناول المؤرخ بشكل إجمالى لبعض الجوانب فى المجتمع الصليبي والحشيشية فى بلاد الشام ما يدعم موقفه حين الحكم عليه مؤرخا للحروب الصليبية. وبالرغم من أن رؤيته للمجتمعين الصليبي والإسلامى فى الشرق كانت من بعد، إلا أنها تعد

بحق رؤية طائر؛ لاتصدها بالشمولية والدقة. إذ ظهر المؤرخ فيما دونه من ظواهر اجتماعية ودينية واقتصادية فضلا عن ما دونه كذلك فى النواحي السياسية محلا وناقدا

(1) William of Newburgh, op.cit., bk.4, Ch. 24: 3.

(2) Ibid, bk.5, Ch. 14: 6.

لما وصل إلى مسامعه، وما قرأه من أخبار الشرق اللاتينى قد وضعه فى زمرة المؤرخين المعاصرين الجديرين بالتقييم.

### الخاتمة :

وبعد الدراسة التى قدمت عن هذه المدونة التاريخية لصاحبها وليم أوف نيوبره يمكن الخروج منها ببعض الانطباعات؛ وهى تشمل الشكل والأسلوب والصياغة والمضمون، بل تطول تقييماً للمؤرخ وكتاباتهِ وإلى أى حد نجح أو أخفق فى تقديم المادة التاريخية. وبادئ ذى بدء والحديث على العموم نجد أن وليم أوف نيوبره لم يكن دقيقاً فحسب فى أسلوب كتابته، إنما بلغ من التدقيق الحد الذى يقرن به مع المؤرخين أصحاب الكتابات الأكثر تطورا فى عصره. فكثيرا ما استخدم النهج النقاد بأن حاول إخضاع الكتاب السابقين عليه والأحداث التاريخية المعاصرة إلى التحليل والنقد. كذلك قدم مادته فى موضوعية، بحيث غلبت عليها روح البحث العلمى، كما اصطبغت بالسرد فى بساطة ولكن كان يراعى فى سرده أن يضعه فى ثوب تاريخى. فضلا عن أنه حاول أن يكون منصفاً عند معالجة الأحداث والقضايا التاريخية القابلة للنقاش والجدل<sup>(1)</sup>. وعلى الرغم مثلا من اختصاصه لقادة المسلمين وعادة ما كان يذكرهم بسوء إلا أنه انتقد الصليبيين واللاتين وبعض قادتهم بشدة وكيل لهم التهم، وأظهر السخط عليهم فى عدة مواقف. وما من شك أن الظروف التى سجل فيها مدونته كانت مهينة بالنسبة له كى تجعل منه مؤرخا على هذا الجانب من الحيده والنزاهة. فقد جاء عمله استجابة لتكليف من أرنولد رئيس الرهبان، وليس من قبل حاكم أو منتفع سياسى أو إقطاعى آخر. فتحرر من الكتابة التاريخية الموجهة. لذا فقد نجح فى إخراجها لهذا العمل بغرض طرح العبر والعظات على الأجيال التالية. فبدا مؤرخنا واعيا لدوره متفهما للأسس فائدة علم التاريخ بشكل تلقائى. وقدم العبر من واقع التجارب السابقة. وعليه فقد نجح فى تأدية وظيفته التى أوكلت إليه لإنجازها.

(١) وهناك من المؤرخين الحديثين من يتفق مع الباحث في معظم ما خرج به من انطباعات عن ما دونه وليم أوف نيوبره في كتابه. انظر:

Blakeley, L. Brian & Collins Jacquelin, op.cit., Vol. I, p. 50.

ومما يذكر للمؤرخ أنه صنف نفسه بشكل غير مباشر على أنه مؤرخ إنجليزي من واقع إبراز جذوره في المعرفة التاريخية من خلال اهتمامه بالتراث الإنجليزي بداية من العصر الروماني فالمسيحية فالأنجلو سكسون فالنورمان. أما بالنسبة لموضوع الدراسة فإنه حدد غير مرة مصادره التي كان يستقى منها معلوماته، وهذا يتضح على سبيل المثال في أحداث مصرع ريموند أوف بواتيه أمير أنطاكية عام ١١٤٩م / ٥٤٤هـ نقلًا عن أحد رجال الدين المعاونين للأمير عند إيايه إلى الغرب، وقابله المؤرخ في شبابه. كذلك نجده يشير في أحداث الجولة الثانية للملك عموري الأول على مصر أن مادتها التاريخية قد نقلت سماعا عن رجال كانوا في المعسكر الصليبي وشاركوا جيش الملك في تحركاته ومعاركه داخل مصر. كذلك تكرر عند المؤرخ التعرض إلى وقائع ترجع إلى العصر القديم كانت قد وردت عند المؤرخ هيرودوت والمؤرخ يوسيبوس القيصري.... إلخ. مما يؤكد على كلاسيكية ثقافته وتعليمه.

إضافة لذلك وفيما يختص بتسجيل التواريخ يلاحظ أن المؤرخ النيوبرهي كان مقلا في ذكرها. إذ انحصر اهتمامه بإيراد تاريخ الأحداث الكبار مقرونة بالتاريخ الميلادي (ولادة السيدة العذراء السيد المسيح) أو باعتلاء ملوك إنجلترا لعروشهم أو بمناسبة دينية بارزة كذكرى الرسل والقديسين. ولم يقف المؤرخ موقف المسجل فقط للأحداث، إنما قام بتحليل بعض جوانبها والوصول إلى جوهر ما يجري بشكل عام. ولما كان مؤرخنا مقيما في الغرب فتحسب له تلك الرؤية الجلية رغم بعده عن الساحة. ويتأكد هذا فيما اتبعه من رصده للأحداث. بيد أن تلك الظروف كانت وراء وقوعه أحيانا في زلات يمكن أن نعدّها أمورا طبيعية ومعتادة عند نظائره من المؤرخين المعاصرين.

ومن أبرز ما يتصف به المؤرخ في كتاباته أنه التزم ما أمكنه بالسياق التاريخي في الموضوعات الرئيسية التي تناولها عن الحروب الصليبية منذ أحداث الانخراط في الحملة الصليبية الأولى وصولا إلى سقوط الرها ١١٤٤-١١٤٦م / ٥٣٨-٥٤٠هـ فخروج الحملة الصليبية الثانية حتى فشلها من ١١٤٧-١١٤٩م / ٥٤٢-٥٤٤هـ ثم سقوط عسقلان ١١٥٣م / ٥٤٨هـ فحملات الملك عموري على مصر وأحوال كل من المسلمين والصليبيين في الشرق، وصدامهما الحربي انتهاء بموقعة حطين ١١٨٧م / ٥٨٣هـ. وما تبعها من الفتوحات للمدن

الصليبية. غير أنه من الضروري الإشارة إلى أن السياق التاريخي لم يراع في العديد من النقاط الجزئية أو التفصيلية. وهذا يتضح في التعريف بالشخصيات العامة التي يكتمل تعريفها عند المؤرخ متأخراً، وذلك بعد الحديث عن جانب أو جوانب من الدور السياسي أو الحربي الذي قامت به تلك الشخصيات. ومن ذلك تعرضه إلى شخصية نور الدين محمود والملك عموري الأول وريموند الثالث صاحب طرابلس وصلاح الدين الأيوبي والملك جاي لوزيجنان. وهذا الأمر يندرج أيضاً على الأحداث التاريخية، ومنها التأخر في التعرض لأحداث الغزو الصليبي لمدينة الرها، حين شرع في الحديث عن أحداث الحملة الصليبية الأولى. ورأى أن يؤجل ذلك إلى حين حديثه عن سقوط الإمارة قبيل الحملة الصليبية الثانية بصفة أن الأمرين يشكلان وحدة موضوعية قائمة بذاتها. فالحملة الصليبية الثانية في نظره لم تأت إلا كرد فعل على سقوط الرها.

كذلك نجد المؤرخ وقد أدخل بالسياق التاريخي في بعض المواضع، ولكن قد يكون فيها ما يبرره. إذ دون وفاة الملك عموري من حيث الترتيب قبل تدوينه لوفاة نور الدين محمود. وربما يرجع ذلك إلى حرصه أيضاً على الوحدة الموضوعية بأن ربط حدث وفاة نور الدين بموضوع توحيد الجبهة الإسلامية على يد خلفه صلاح الدين. وفي موضع آخر نجد المؤرخ قد أرجأ الحديث عن أحوال مملكة بيت المقدس الداخلية إلى ما بعد الحديث عن معركة حطين وسقوط القدس ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ. ولعل مبرره الكامن في ذلك هو إرجاعه وقوع حدث السقوط إلى الأحوال السيئة التي آلت إليها المملكة في أواخر عهدها، ونتيجة لها. وبصفة عامة فقد يكون عدم الالتزام بالسياق التاريخي هو أبرز ما قد يؤخذ على المدونة مع ضرورة الأخذ في الاعتبار وجهة نظر المؤرخ فيما دون.

وما يميز الكتابة التاريخية عند المؤرخ أنه اعتاد أحياناً أن يسبق عرضه للأحداث الخاصة بإمارة أو إقليم في الشرق بوضع تمهيد تاريخي له يتصف بالإيجاز يمتد من العصر القديم وصولاً إلى فترة الصراع الإسلامي الصليبي، وهذا واضح في عرضه لتاريخ الرها القديم وفضلها على المسيحية ونضالها الديني وصمودها أمام الفتوحات الإسلامية حتى الغزو الصليبي، كما يتضح في عرضه لتاريخ مصر القديم والإشارة إلى بابل ونيينوى (عاصمة مملكة آشور) وقمبيز الفارسي وإلى خصائص الدولة الفاطمية التي عبر عنها بسداجة عند مقارنتها بدولة الأتراك. وهذا بالقطع ينم عن ثقافة تاريخية كان المؤرخ قد ألم بها ربما أثناء حياته الديرية.

وقد ثبت من خلال أكثر من موضع على مدى هذه الدراسة أن المؤرخ تميز بأنه اتخذ من الإيجاز فى الكتابة منهجا حتى لو توافرت لديه المادة التاريخية إدراكا منه بطبيعة وهدف ما يقوم به من عمل علمى، ومن ذلك الاكتفاء بالإشارة إلى فشل الحملة الصليبية الثانية بعودة الملكين كونراد الثالث ولويس السابع إلى بلادهما بلا مجد يخلد ذكراهما دون الدخول فى تفاصيل إخفاق الحملة أمام دمشق. كذلك دمج لوقائع حملات الملك عمورى المتعددة علمصر فى جولتين ربما لتشابهها بشكل لا يخل معه سرد الوقائع المختلفة باختصار. وأيضا نجده قد اكتفى بالتعرض إلى محاولة ريموند الثالث أمير طرابلس وبوهيموند الثالث أمير أنطاكية الانتفاع من الحملة الفلمنكية ١١٧٧م / ٥٧٣هـ أما حين الوقوف على مسببات كارثة حطين فقد استعان المؤرخ بكلمات مقتضبة لتوضيح ذلك. إذ أبدى امتعاضه من القيادة من خلال وصف جاي لوزيجنان بأنه أحمق، وأنه الملك الذى عينته امرأة. كما أشار إلى أنها شاركته فى سوء تقدير الموقف لتركهما مدن المملكة بلا عظام أى بدون المدافعين عنها.

ومما يمكن تسجيله من ملاحظات على الكتابة التاريخية فى المدونة أن المؤرخ اعتاد على إبداء الاهتمام بذكر ما يتعلق بجهود الحكام والأمراء العلمانيين بدرجة أكبر من اهتمامه برجال الدين. وهذا واضح فيما دونه عن الحملة الصليبية الأولى بإبراز دور أمير نورمانديا روبرت دون التوقف عند ما لعبته البابوية من دور أساسى فى الدعوة لها. وأيضا يلاحظ أن المؤرخ اهتم أثناء تسجيله لأحداث الحملة الصليبية الثانية بدور ملكى ألمانيا وفرنسا، فى حين أغفل ما لعبه القديس برنارد أوف كليرفو والبابا يوجينيوس الثالث من دور فى قيامها. ولم يرد ذكر لأى من بطاركة بيت المقدس سوى ذكر البطريرك هرقل الذى دخل فى دائرة الضوء عند المؤرخ بسبب زيارته للملك الإنجليزي فى إنجلترا. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى كان من اللدبت للنظر ميل المؤرخ واهتمامه بإبراز دور طائفة فرسان الداوية دون طائفة فرسان الإسبتارية فى الأحداث حتى لو كان دورا سلبيا رغم عظم دوريهما العسكرى. ويعتقد الباحث أن ذلك كان نتيجة لارتباط طائفة الداوية الروحى بأمر خاص بالنتاج الإنجليزي ولأسباب دينية وشخصية ونفسية تخص الملك هنرى الثانى.

وفى العادة ما استخدم المؤرخ أسلوبا رصينا عذبا به بعض المحسنات البلاغية، إضافة إلى جنوحه إلى التعبير بعبارات مختصرة تضم معانى دفينه لها مغزاها. وهذا واضح فى

النص الإنجليزي الذى بين أيدينا، رغم أنها لغة بسيطة ليست باللغة الأم وهى اللاتينية، ومن ثم فالمفترض أن الكتاب بلغته الأصلية قد يحمل بشكل أوضح تلك المحسنات. من ناحية أخرى فقد تكرر عند المؤرخ شأنه فى ذلك شأن بقية المؤرخين المعاصرين له الارتكان إلى أمثلة من العهدين القديم والجديد لا تخلو من تفسير خاص به تمشياً مع الأحداث التاريخية فى عصر الحروب الصليبية. وقد أشار الباحث فى دراسته فقط إلى جانب منها. وقليل ما نجد فى كتابات المؤرخ الجوانب الأسطورية أو الأمور الخارقة للعادة التى ربما تكون واضحة فى كتابات غيره من المعاصرين، ومن ذلك الإشارة إلى ورود أعداد كثيفة من الخنازير البرية بشكل فجائى لقمة سائغة إلى معسكر الجيش الصليبي تحت قيادة الملك عمورى خلال حملته الثانية على مصر وعلى ضفاف النيل. أما حينما تناول مرحلة بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام والفتوحات الإسلامية فأطلق لنفسه العنان فى اختلاق أو ترديد قصص ليس لها أساس من الصحة بحيث وصمت كتاباته بالأسلوب المبتذل فى هذا الاتجاه.

وخلاصة القول أنه بعد معالجة سكوت ماكلتشى لنص مدونة وليم أوف نيوبره التاريخية ومساهمته الفعالة فى جعلها ميسورة فى تناول المؤرخين المحدثين والباحثين المهتمين بالتاريخ الأوروبى الوسيط وتاريخ الحركة الصليبية فى الغرب والشرق أصبح ضرورياً أن توضع فى قوائم المصادر التى ينبغى الرجوع إليها؛ نظراً لما تتضمنه من مادة تاريخية أصيلة ومدققة، معاصرة للفترة الزمنية الواقعة بين ١٠٦٦-١١٩٧م / ٤٥٨-٥٩٤هـ. وعلى الرغم من أن المادة ذات الصلة بموضوع الحروب الصليبية فى الشرق الخاصة بفترة (١٠٩٩-١١٨٧م / ٤٩٢-٥٨٣هـ) لم تكن على ذات درجة الاهتمام مقارنة بالمادة المتعلقة بالتاريخ الإنجليزي والأوروبى فى الحقبة ذاتها فى المدونة، إلا أنها بعد فحصها أثبتت أنها مادة مهمة وبها ما يسد بعض الثغرات الماثلة فى المصادر اللاتينية الصليبية الأخرى ويكملها أو يؤكدها. وعلى سبيل المثال فرغم الفارق الواضح بين إيجاز وليم أوف نيوبره وإسهاب وليم الصورى فى تناوليهما للأحداث والشخصيات الصليبية فى الشرق إلا أن الأول لديه ما يضيفه أو ينفرد به أو يؤكد على حدوثه فى كتابات المؤرخ الثانى كما أوضحته الدراسة. ولا يعنى إيجاز مؤرخنا للأحداث أن الرؤية لم تكن واضحة عنده، مما يستوجب التقليل من شأن مدونته، إنما كان إيجازه فى تناول موضوعات البحث بمثابة أسلوب معتمد عنده فى الكتابة، ويتضمن بين طياته الدلائل على أن المؤرخ بذل جهداً واضحاً فى تدوين مؤلفه، كما أنه كان مطلعاً على كثير من الأمور

التي تخص اللاتين فى الشرق رغم بعده الجغرافى. وعليه فإن ذلك من شأنه أن يضعه ضمن المؤرخين الأساسيين المعاصرين الذين تناولوا الحركة الصليبية فى الشرق.

### قائمة بأهم مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر الأجنبية والعربية والمعربة :

(١) المصادر الأجنبية :

- Anonymus, Gesta Francorum Iherusalem, ed. Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, Paris, 1866.
- Bernard of Clairvaux, Some Letters of Saint Bernard abbot of Clairvaux, from the translation of the late tales, Vicar of Satisfield, selected by Francis Aidan Gasquet, D.D., London, 1994.
- Ernoul, La Chronique d'Ernoul & de Bernard le Trésorier, ed. Mas-Latrie, Paris, 1871.
- Fulcher of Charters, A History of the Expedition to Jerusalem, trans. by Frances Rita Ryan, ed. with an introduction by Harlod's Fink, Konville, U.S.A., 1969.
- Grégoir le Prêtre, Continuation de Mathew d'Edessa's chronicle, Recueil des Historiens des Croisades, H.Arm., Paris, 1869.
- Jupp, A., Margret, (ed.) Histoires d'outre mer et de la Raissance Salehadin, London, 1990.
- Kinnamos, John, Deed of John and Manuel Comnenus, trans. by Charles M. Brand, New York, 1976.
- Michel le Syrien, Chronique de Michel le Syrien: éditée et traduite en français par J.B. Chabot, Paris, 1906.
- Odo of Deuil, De Perfectione Ludovici VII in Orientem, edited with an English Translation by Virginia Gingerick Berry, New York, 1948.
- Raimond d'Agiles, Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, en: Recueil des Historiens des croisades, Historiens Occidentaux, Paris, 1866.
- Roger of Hovden, Annals of Roger of Hovden, The History of England and of other countries of Europe from 732 a.d. to 1201 a.d., trans. from the Latin with notes and illustrations by Henry T. Riley, London, 1853.
- Roger of Wendover, Flowers of History, trans. from the Latin by Gilles, J.A., London, 1849.
- Theoderick, Description of the Holy Places, 1172 A.D., trans. by Aubrey Stewart, in Palestine Pilgrim's Text Society, London, 1894.
- William of Newburgh, Historia Rerum Anglicarum, ed. Howlett, R.: Chronicles of the Reigns of Stephen, Henry II and Richard I, London, 1844; The Church Historians of England; translated by Joseph Stevenson (London: Seeley's, 1861). The electronic form of this presentation is © 1999 by Scott McLetchie.

- William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, trans. by Babcock and Krey, New York, 1943.

## (٢) المصادر العربية والمعربة :

- العهدان القديم والجديد
- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١١٢٤م) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني الجزري: الكامل في التاريخ، ١٢ ج، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن أبيك الدواداري : (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) أبو بكر عبد الله بن أبيك: كنز الدرر وجامع الغرر، (الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٣٨٠هـ./١٩٦٠م.
- ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، كتب هوامشه وعلق عليه: طلال حرب، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧م.
- بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م.
- ابن جبير : (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي : رحلة ابن جبير المسماة تذكرة الأخبار في اتفاقيات الأسفار ، تحقيق : حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .
- سبط بن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٧م) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، المجلد الثامن، ق ١-٢، حيدر آباد، ١٣٧٠هـ./١٩٥١م.
- أبو شامة، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٧م) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن إسماعيل: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢ ج، بيروت (ب-ت).
- ابن شداد، (ت ٦٣٢هـ-١٢٣٤م) القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن تميم بن عتبة: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق د. جمال الدين الشيبان، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ابن العديم : (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م) كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن وهبه الله الحلبي: زبدة الحلب في تاريخ حلب ، نشر : سامي الدهان ٢ ج ، دمشق ، ١٩٥١ م .
- العماد الأصفهاني، (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) عماد الدين محمد بن محمد ابن حامد: البرق الشامي، تحقيق: د. مصطفى الحيارى، الطبعة الأولى، عمان-الأردن ١٩٨٧م.
- أبو الفدا: (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) إسماعيل بن علي محمود، الملك المؤيد صاحب حماة: المختصر في أخبار البشر، ٤ ج، في مجلدين، بيروت (ب-ت).

- ابن القلانسي: (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد: ذيل تاريخ دمشق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨م.
- القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد عبد الله: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الإبياري، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤٠٥هـ./١٩٨٤م.
- ابن واصل، (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) محمد بن سالم، جمال الدين: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١-٣، تحقيق: د. جمال الدين الشيبان، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٦٠م.
- أبو اليمى العليمي (ت ٩٣٧هـ/١٥٢٢م) أبو اليمى عبد الرحمن بن مجير الدين: الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج ٢، بيروت ١٩٧٣م.
- يوسيبوس القيصرى: تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقس داود، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٨م.

### ثانيا: المراجع الأجنبية والعربية والمعربة :

#### (١) المراجع الأجنبية :

- Baldwin, W. Marshall, The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143-1174, in: Setton, K.M., Vol. 1, 1<sup>st</sup> ed., USA, 1985.
- Blakeley, L., Brian & collins Jacquelin, Documents in British History, 2 Vols., 2nd ed., London, 1993.
- Edbury, P.W. William of Tyre, A History of the Crusades and the Kingdom of Jerusalem (1130-1184) in Bulletin of the Faculty of Arts in Alexandria University, 1988 .
- Grousset, R., L'Épopée des Croisades, Paris, 1939.
- -----, Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, 3 Vols., Paris, 1934-1936.
- Hamilton, B., The Elephant of Christ, Reynald of Chatillon, ed. In Monastic Reform Catharism and the Crusade- 900-1300, Varior. repr. London, 1979.
- Lane Poole, Austin, from Domesday Book to Magna Carta 1087-1216, 2nd ed., Oxford, 1954.
- Macintyre, A.D., Williams, A.D., Henry II of England and the Holyland, ed. In English Historical Review, Vol. XCVII, London, 1982.
- Mayer, H.E., The Crusader Lordship of Kerak and Shaubak, some preliminary remarks, in: Studies in the History and Archeology of Jordan, Aman, 1987.
- Nicholson, R.L., Joscelyn I, Prince of Edessa, The University of Illinois, 1954.
- -----, Joscelyn III and the Fall of the Crusader States (1134-1199) illinois, 1973
- Oman, Ch., History of the Art of War in the Middle Ages, 2nd ed., 2 Vols., New York, 1924.
- Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956.

- Richard, J., About an account of the battle of Hattin, ed. In Speculum XXVII, 1952, referring to the Frankish mercenaries in oriental Moslem states, Cambridge, 1976.
- Runciman, S., A History of the Crusade, 3 Vols., Cambridge, 1951-1954.
- Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte, Paris, 1906.
- Raven, Suzan, Rome in Africa, 3rd. ed., London, 1992.
- Tibble, Steven, Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem, Oxford, 1989 .
- Tyreman Christopher, England and the Crusades 1095-1588, Chicago, 1988.
- Warner, G.T. & Marten, C.H.K., The Groundwork of British History, Part I (55 b.c.-1603), London.
- Warren, W.L., Henry II, ed. London, 1977.

## (٢) المراجع العربية والمعربية :

- إبراهيم خميس: جماعة الفرسان الداوية وعلاقتهم السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى الإسلامى ١١١٨-١١٩٣م / ٥١٢-٥٨٩هـ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد.
- أسامة زكى زيد: الصليبيون وإسماعيلية الشام فى عصر الحروب الصليبية (القرن الثانى عشر الميلادى/السادس الهجرى)، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
- السيد عبد العزيز سالم : دراسات فى تاريخ العرب، الجزء الأول، عصر ما قبل الإسلام، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٨م.
- إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم، ٣ ج، بيروت، ١٩٩٥م.
- جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام ، الطبعة الثالثة، إسكندرية، ١٩٧١م.
- حسين محمد عطية: إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (١١٧١-١٢٦٨م/٥٦٧-٦٦٦هـ)، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م.
- حسين مؤنس: نور الدين محمود، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩م.
- سعيد السيد فرغلى: دور إنجلترا فى الصراع بين المسلمين والصليبيين ١٠٩٥-١١٨٩م/٤٨٨-٥٨٥هـ، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، آداب الإسكندرية، عام ٢٠٠٠م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، الطبعة السادسة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.
- على أحمد محمد السيد: أهم التطورات فى أبنية القدس الدينية منذ الغزو الصليبي حتى استرداد المسلمين لها (١٠٩٩-١١٨٧م/٤٩٢-٥٨٣هـ)، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب- جامعة المنوفية، أغسطس ١٩٩٥م.
- علية عبد السميع الجنزورى: إمارة الرها الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

- عمر كمال توفيق: المؤرخ ولیم الصورى، مجلة كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، عدد ٢١، ١٩٧٠م.، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٦٩م.
- قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، الكويت، شوال ١٤١٠هـ / مايو ١٩٩٠م.
- محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
- محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول (١١٤٣-١١٨٠م)، دار المعارف، ١٩٨٥م.
- كولتون، ج.ح: عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة، ترجمة وتعليق: جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- كرسنوفر دوسن: تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة: سعيد عاشور، محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٧م.

\* \* \*